جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بالديدامون – شرقية

مقاصد منهج التفكير العلمي عند الإمام الغزالي

دراسة تحليلية لمواجهة التيارات الفكرية في عصره

« إطلالة على وسطية التفكير عند علماء المسلمين »

إعداد

الأستاذ الدكتور: أحمد إسماعيل أبو شنب

عميد كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية

بجامعة الأزهر – فرع طنطا

المؤتمر العلمي الدولي الأول

١٤٤٣هـ/ ٢٠٢١م

مقاصد منهج التفكير العلمي عند الإمام الغزالي
دراسة تحليلية لمواجهة التيارات الفكرية في عصره
« إطلالة على وسطية التفكير عند علماء المسلمين »

أحمد إسماعيل أبو شنب
قسم العقيدة والفلسفة - كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية
مدينة: طنطا. محافظة: الغربية . الدولة: جمهورية مصر العربية.

ملخص البحث :

الحمد لله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم، فأفاض علينا من فيض جوده وهدانا إلى مقاصد إدراك شرعنا الأسمى ، وفقهه الأسنى، فنضبط به مسارات تفكيرنا، ونسترشد به إلى استكناه فقه المآلات، والعلل والبينات، والموازنات والترجيحات والقياسات والاستنتاجات، وندرك قضاياه الكلية والجزئية، والعامة والتفصيلية، بتلميح وتصريح، وتمحيص وتنقيح، ولطف وتوفيق.

اللهم صلى وسلم على خير من خلقت، وخاتم من أرسلت، وأعدل من قضى، وأرف من حكم، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن نهج نهجه، واتبع ملته، وسار على هديه إلى يوم الدين عدد ما حواه العدد وعدد ما تقاصر عنه من كل شيء أحاط به علمك، وتعلقت به إرادتك، ونفذ فيه مشيئتك، وكما يليق بكمالك.

وبعد

فإن الإمام الغزالي يعد أحد أبرز علماء المسلمين المجددين الذين دافعوا عن وسطية الإسلام، وعنوا بمواجهة التيارات الفكرية المنحرفة التي طفرت على الساحة الإسلامية في عصره، فسبر أغوارها، وخبَر جوهرها واستكنه مهاياها بدراسة مستفيضة، ومن خلال منظور نقدي فكري وسطي معتدل وفائق، فنقض غاليها وأبطل شاردها، برؤية مقاصدية تنطلق من فقه النص إلى فقه المآلات، ومن مسائل الاستدلال إلى دقائق الاستنتاج، ومن رقائق الموازنات إلى لطائف الترجيحات، ثائرا على المبادئ العقلية الفاسدة، والنزوعات العقدية الضالة، التي تعتمد على مبدأ " تكافؤ الأدلة واستواء المرجحات " الذي لا يفض جدالا ولا يقطع حجاجا، مما يؤدي إلي الزعم بصحة المتناقضات، بل إلى صواب الرأي في كلا النقيضين، مما يرسخ اعتقادات كل من المؤمنين والملحدين على السواء، ويجعل قضية الوجود الإلهي حائرة بين إقرارٍ ونفيٍ، وإيمان وكفر، ولا يخفى ما بذلك من خطر عظيم على قضية الإيمان بالله تعالى، والإيمان بالرسالات الإلهية إلى الخلق أجمعين، وعلى قناعات العقول

ومعتقدات النفوس، والقيم والسلوك.

وقد كانت معالجات الإمام الغزالي لهذه القضايا من خلال منظور مقاصدي يتجرد لإبراز مقاصد الدين الإسلامي في قضاياه الكلية والتفصيلية من خلال جدليات فائقة تنقض شطط الفلاسفة وغلو بعض المتكلمين، ومروق الماديين والطبيعيين والملاحدة، خلصت إلى إبراز وسطية الإسلام في معالجة قضايا التدين والنزوع إلى اللادين ومعالجة قناعات العقول، وغواية النفوس، وزيغ القلوب.

وقد تنوعت مقاصد التفكير عند الإمام الغزالي إلى نوعين هما:

أولا: مقصد عام: ويتمثل في إبطال مذاهب الباطنية والمعطلة والمجسمة والمشبهة، من الذين انحرفوا في قصدهم، وزاغت قلوبهم عن إدراك أنوار المعتقد الصحيح والتشريع الحكيم باعتساف التأويل، وخطأ التفسير، وفساد الرأي.

ثانيا: مقاصد تفصيلية كلية.

هذا ويتضمن البحث ما يأتي:

أولا: إشكالية البحث

ثانيا: مقاصد التفكير العلمي عند الإمام الغزالي، ومنها ما يأتي:

١- مقصد الدفاع عن رتبة النص أمام النزوعات العقلية الجامحة.

٢- مقصد التوفيق بين العقل والنقل.

٣- مقصد إعلاء قيم الاجتهاد المنضبط.

٤- مقصد ترسيخ فقه المآلات في مواجهة الصيرورات الفكرية اللاوعية.

٥- مقصد تحقيق الأمن الفكري والاجتماعي وعدم انفراط عقد الأمة.

ثالثا: الخاتمة، وبها أهم النتائج والتوصيات.

ثبت المراجع والفهارس.

الكلمات المفتاحية: المقاصد – تفكير علمي – التيارات – وسطية – علماء .

The purposes of the scientific thinking approach according to Imam Al-Ghazali – Analytical study to confront intellectual currents in his era.

A look at the moderate thinking among Muslim scholars.

Ahmed Ismail Abo Shanab

Department: (Creed and Philosophy) faculty of the fundamentals of Islamic religion and Islamic preachin*g*

city: Tanta Province: algharbia

/AL-Azhar University country: Arab republic of Egypt

Abstract:

Praise be to God, lord of the worlds, and may peace and blessings be upon he who was sent as mercy to the worlds.

Imam Al-Ghazali is considered one of the most prominent Muslim scholars of renewal who defended the moderation of Islam and means of confronting the deviant intellectual currents that surged in the Islamic scene in his time. He explored its depths and its essence with an extensive study through a moderate and superior, intellectual, critical perspective, so he overruled its intellectual exaggeration and nullified its deviation through an intentional view, starting from the jurisprudence of the text to the jurisprudence of consequences of things, from issues of inference to subtleties of conclusion and from the accuracy of balances to the accuracy of adjustments, rebelling against corrupt mental principles and deviant ideological tendencies that depend on the equalization of weights which doesn't lead to controversy and doesn't cut arguments which lead to the claim of the validity of contradictions, rather to the correct opinion in both extremes which consolidates the beliefs of both believers and atheists alike, and it makes the issue of the divine existence torn between affirmation and denial, faith and disbelief. It is not hidden from the great danger of the issue of belief in God Almighty and belief in the divine messages to all creation and on the convictions of minds and beliefs of souls and values and behavior.

Imam Al-Ghazali's treatments of these issues were through a purely intentional perspective to highlight the purposes of the Islamic religion in its total and detailed issues through superior polemics that counteract the excesses of philosophers and the hyperbole of some

theologians, and the disapproval of the materialists, the naturalists and atheists. I concluded to highlight the moderation of Islam in dealing with issues of religiosity and inclination toward atheists, and dealing with convictions of souls and deviation of hearts.

The intentions of thinking according to Imam Al-Ghazali varied into two types:

First, a general purpose, which is represented in the invalidation of the esoteric, disabling, anthropomorphic and the suspicious are among those who deviated from their intentions whose hearts deviated from their realizing the lights of true belief and wise legislation by the despondency of interpretation, the error of interpretation and the corruption of opinion.

Secondly, the purposes of scientific thinking according Imam Al-Ghazali including the following:

١. The purpose of defending the order of the text against unbridled mental tendencies
٢. The purpose of reconciling the mind and transportation
٣. The purpose of upholding the values of disciplined diligence
٤. The purpose of consolidating the jurisprudence of affairs in the face of subconscious intellectual future.
٥. The purpose to achieve intellectual and social security and not to lose the strength of the connection

Thirdly, the conclusion contains the most important results and recommendations.

Key words: The purposes- scientific thinking- currents- moderate- Scientists

المقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم، فأفاض علينا من فيض جوده وهدانا إلى مقاصد إدراك شرعنا الأسمى ، وفقهه الأسنى، فنضبط به مسارات تفكيرنا، ونسترشد به إلى استكناه فقه المآلات، والعلل والبينات، والموازنات والترجيحات والقياسات والاستنتاجات، وندرك قضاياه الكلية والجزئية، والعامة والتفصيلية، بتلميح وتصريح، وتمحيص وتنقيح، ولطف وتوفيق.

اللهم صلى وسلم على خير من خلقت، وخاتم من أرسلت، وأعدل من قضى، وأرف من حكم، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن نهج نهجه، واتبع ملته، وسار على هديه إلى يوم الدين عدد ما حواه العدد وعدد ما تقاصر عنه من كل شيء أحاط به علمك، وتعلقت به إرادتك، ونفذ فيه مشيئتك، وكما يليق بكمالك.

وبعد

فإن الإمام الغزالي يعد أحد أبرز علماء المسلمين المجددين الذين دافعوا عن وسطية الإسلام، وعنوا بمواجهة التيارات الفكرية المنحرفة التي طفرت على الساحة الإسلامية في عصره، فسبر أغوارها، وخبَر جوهرها واستكنه مهاياها بدراسة مستفيضة، ومن خلال منظور نقدي فكري وسطي معتدل وفائق، فنقض غاليها وأبطل شاردها، برؤية مقاصدية تنطلق من فقه النص إلى فقه المآلات، ومن مسائل الاستدلال إلى دقائق الاستنتاج، ومن رقائق الموازنات إلى لطائف الترجيحات، ثائرا على المبادئ العقلية الفاسدة، والنزوعات العقدية الضالة، التي تعتمد على مبدأ " تكافؤ الأدلة واستواء المرجحات " الذي لا يفض جدالا ولا يقطع حجاجا، مما يؤدي إلي الزعم بصحة المتناقضات، بل إلى صواب الرأي في كلا النقيضين، مما يرسخ اعتقادات كل من المؤمنين والملحدين على السواء، ويجعل قضية الوجود الإلهي حائرة بين إقرارٍ ونفيٍ، وإيمان وكفر، ولا يخفى ما بذلك من خطر عظيم على قضية الإيمان بالله تعالى، والإيمان بالرسالات الإلهية إلى الخلق أجمعين، وعلى قناعات العقول ومعتقدات النفوس، والقيم والسلوك.

وقد كانت معالجات الإمام الغزالي لهذه القضايا من خلال منظور مقاصدي يتجرد لإبراز

مقاصد الدين الإسلامي في قضاياه الكلية والتفصيلية من خلال جدليات فائقة تنقض شطط الفلاسفة وغلو بعض المتكلمين، ومروق الماديين والطبيعيين والملاحدة، خلصت إلى إبراز وسطية الإسلام في معالجة قضايا التدين والنزوع إلى اللادين ومعالجة قناعات العقول، وغواية النفوس، وزيغ القلوب.

ومن البدهي لدى الناظرين والمتأملين ومن المسلم به عند المتخصصين والمجتهدين والمثقفين والمفكرين والمنظرين والمبدعين أنه لا يتخيل منهج علمي فكري بدون مقاصد يسعى أربابه إلى تحقيقها، لتصلح بها أحوال الناس ، وتنهض بها الأمم ، وترتقي بها الحضارات، وتثري بها أروقة العلم، ويهتدي بها دارسوه إلى ترسيخ قيم العلم النافع ، والفكر المستنير ، وتُصقَل بها المواهب ، وتصفوا المدارك ، فتنصاع العقول لقيم الاعتقاد الراشد ، واليقين الراسخ ، وتُعالَج بها مشكلات الواقع ، ويُستشرَف بها المستقبل في إطار من القياسات المنضبطة والتحليلات العلمية الدقيقة ، والرؤى الفكرية الناضجة ، والاستنتاجات الصحيحة .

ومن القطعي أن منهجا علميا فكريا بلا مقاصد ليس إلا ضربا من الجدليات المفرغة من حكمة المنطق ، ومنطق الحكمة ، ودلالات المعقول، مجافاة المنقول ، ولا يعدو كونه فكرا عبثيا ، أو عبثا فكريا.

والمتأملُ في فكر الإمام الغزاليِّ والناظرُ المدقق في منهجه من خلال مؤلفاته يقف على الكثير من الرؤى المقاصدية التي تبني العقول ، وتُثرِي ملكاتِ الإدراك ، وتُجلِي الفِطرَ ، وتُذهِب غشاوةَ البصر، وزيغَ الهوى، وتؤسسُ لفكر منضبطٍ راشدٍ .

وقد تنوعت مقاصد منهجه فشملت المعتقدَ والرأيَ ، والمجتمعَ والأمةَ ، والإنسانَ والكونَ، والعقل والقلب، والتفكير المجرد، والوجدان الصادق. وقد استلهم الإمامُ الغزاليُّ مقاصدَه من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وقيم الإسلام ومبادئه .

إن إعلاء قيم الاجتهاد في فقه النصوص الشرعية ودقائق دلالاتها ، وتوليد الدلالات العقلية منها من خلال منظور تأملي فاحص يفضي إلى النظر السديد والاستنتاج القويم، تأسيسا لفكر منضبط،

وعقلية متوازنة، ونظرا لأن الإمام الغزالي ذو عقلية متوجهة وذهنية متوقدة نشأت عن سعة اطلاعه ودراساته العلمية لكثير من العلوم والاتجاهات السائدة في عصره، ونظرا لما يتمتع به من طاقات إدراكية نأت به عن أسر التقليد، ونيِّر الظاهر ، مما دفعه إلى التفلت من قيود التقليد يسبح في آفاق الاجتهاد، إضافة إلى آرائه الثائرة على العقل المجرد ، ونظرا لما يتمتع به من مخيلة قوية تجعله ماهرا بالتصوير الدلالي والتنظير الفكري وقوة الاستقراء ، وعمق التحليل ، وبراعة الاستنتاج ، يمازج بين النص والعقل وبين مدلولات النصوص ودلالات العقول ، يعلي من قيمة النقل ويخفض له جناح العقل، ونظرا لما تمتع به من وفرة الدراسات الأصولية والفقهية والمنطقية ، والفلسفة وعلم الكلام ، وغير ذلك من العلوم ، التي ساهمت في مزيد من أَلَقِه وتوهُّج عقلِه وتبوئه مكانة عالية بين علماء عصره، ونظرا لكل هذا استطاع الإمام الغزالي أن يكون واحدا من أعلام المجددين في الإسلام على مدى العصور ، وقد بزغت آراؤه التجديدية في مرحلة فكرية عات موجها. وتداخلت فيها الأهواء بالجدليات ، وتناقضت فيها الرؤى والتصورات ، واستشرت فيها الزندقة، وغلت تأويلات الباطنية فلبس ذلك على بعض الناس أمر دينهم ، وجعلهم في حيرة من أمرهم، فشمر الإمام الغزالي عن ساعد الجد ، وقدح ذهنه في حاجة الأمة إلى إعلاء قيم الاجتهاد ، الذي بات ضرورة تفرضه التناقضات والجدليات الثائرة في الوسط الفكري آنذاك .

وقد أدرك الإمام الغزالي أن التجديد الفكري في عصره ضرورة لا مفر منها ، ولا مناص عنها، وأدرك أنه لن يتم إلا بأمور نستنبطها من خلال مؤلفاته الكثيرة منها ما يأتي :

١- ضرورة إعادة بناء العقل الإسلامي وتشكيله ، وإحكام تكوينه وصياغته في ضوء التحديات المحدقة بالأمة .

٢- أهمية استقراء واقع الفلسفات والجدليات المناقضة لتعاليم الإسلام ودراستها بصورة تجعل الدارس لها حاذقا فيها ماهرا بها، كي يستطيع أن يرد على ترهاتها، وينقض بنيتها الاستدلالية، ويقوض مذهبها الفكري.

٣ – ضرورة صياغة علوم الإسلام صياغة جديدة تمكن المشتغلين بها من مواجهة التحديات الفكرية

والعقدية والدينية المحدقة بها في ضوء تحديات العلم الحديث .

٤- الاستفادة بعلوم الكون والحياة في إعادة الطرح الفكري العقدي ، وتكوين رؤية عقلية منطقتيه فلسفية حكمية تؤصل لفلسفة إسلامية راشدة قادرة على مواجهة التحديات العقدية والفكرية والفلسفية، ومن خلال قراءة جديدة للنصوص الدينية المصدرية ، وإضفاء صيغة جديدة على مفهوم الاجتهاد، وتمثلت في التحول بالاجتهاد إلى الاجتهاد في فقه النصوص الشرعية بدلا من قصر الاجتهاد على القضايا التي لم يرد فيها نص ، مما فتح له آفاق التفكير العلمي المنضبط ، القائم على النظر السليم والفكر السديد، الأمر الذي جعل الغزالي يتخطى دائرة التفكير فيما هو كائن من العلوم إلى التصنيف العلمي لعدد من العلوم الإسلامية في مجالات العلم المختلفة والتأسيس لحركة إبداعية تجديدية، تبرز قيمة الإسلام في استيعاب طاقات الكون ، وحركة الحياة ، وتوظيفها لخدمة قضايا الدين والدعوة إلى الإسلام في إطار من البراهين والحجج ، التي تفيد العلم وتحصل اليقي ، وتكشف تهافت دعاوى المنحرفين والمضللين والزائغين من أصحاب الأهواء التي قامت على الخرص والوهم والظن ومحض التخيل، واستنطاق القرائح بما يصادم الحق ، ويذري بقيم اليقين فيبذر بذور الشك والحيرة والتردد والمروق من الدين، والوقوع في نير التشبيه والتجسيم والحلول .

لذا ترى الإمام الغزالي في مقدمات مصنفاته يلمع إلى مقاصد التصنيف في إشارات واعية، وبينات تخدم عمليتي الإقناع والاقتناع العقليتين

هذا، وقد تنوعت مقاصد التفكير عند الإمام الغزالي إلى نوعين هما:

أولا: مقصد عام: ويتمثل في إبطال مذاهب الباطنية والمعطلة والمجسمة والمشبهة، من الذين انحرفوا في قصدهم، وزاغت قلوبهم عن إدراك أنوار المعتقد الصحيح والتشريع الحكيم باعتساف التأويل، وخطأ التفسير، وفساد الرأي.

ثانيا: مقاصد تفصيلية كلية.

هذا ويتضمن البحث ما يأتي:

أولا: إشكالية البحث.

ثانيا: مقاصد التفكير العلمي عند الإمام الغزالي، ومنها ما يأتي:

١- مقصد الدفاع عن رتبية النص أمام النزوعات العقلية الجامحة.

٢- مقصد التوفيق بين العقل والنقل.

٣- مقصد إعلاء قيم الاجتهاد المنضبط.

٤- مقصد ترسيخ فقه المآلات في مواجهة الصيرورات الفكرية اللاوعية.

٥- مقصد تحقيق الأمن الفكري والاجتماعي وعدم انفراط عقد الأمة.

ثالثا: الخاتمة، وبها أهم النتائج والتوصيات.

ثبت المراجع.

□

مقاصد منهج التفكير عند الإمام الغزالي

المطلب الأول

مقصد الحفاظ على رتبية النص

« الحفاظ على رتبية النص » القرآني والنبوي أحد أهم مقاصد منهج التفكير العلمي للإمام الغزالي فقد التزم بصدارة النص في التقرير والإثبات، والنقض والنفي ، وهو وإن كان يقدِّرُ العقلَ، ويُعلي من قيمته إلا أنه جعله منقادا للنص في الاستدلال ، وإن ذهب إلى ضرورة التأويل للنصوص الخبَرية في قضية الصفات فمن قاعدة التنزيه للذات العلية عن صفات الحدوث ، وليس تقديما للعقل على النص، وإنما من منطلق فقه أدقَّ وأعمقَ للدلالات النصية بعيدا عن التكلف في التأويل، أو الاعتساف في الاحتجاج به على المشبهة والمجسمة ونفاه الصفات من بعض الفلاسفة وغلاة المتكلمين وغيرهم، وذلك لما رأى من أن مدارك العقول قاصرة نظرًا لما يعتريها من الظن والوهم والتخييل والإرادة، ولا يمكن الاستقلالُ بها عن النص في طلب العلوم والمدركات ، وإن كان قد منَّ الله تعالى على الإنسان بالعقل وكرَّمه به فإنما ليؤهله للتلقي عن الله تعالى، وفهم قصودات الشارع الحكيم، والتأمل في جواهر المخلوقات وأعراضها ومآلاتها، مما وردت به النصوص ، وشهدت به دلالاتها .

ولعلنا نقف على هذا بوضوح من خلال ما يأتي:

١ – يعتمد الإمام الغزالي في عرض قضاياه على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة عن طريق الاستقراء الجزئي أو الكلي، ثم يُنعم النظر بها ويُمعنه فيها ، ويحلل ما فُتِح له من دلالاتها ومفاهيمها ومعانيها، معضِّدًا ذلك أيضا بروايات السنة النبوية التي تتقارب مع دلالاته ، وتنسجم معها في نسق بديع يمازج بين دلالات النص والعقل ، ويعلي رتبية النص ، ويدافع عنها ، ويدين بها، ولعلك تلحظ هذا من خلال بعض ما سقناه عنه من نماذج ، والمطلع على مؤلفاته يلمس هذا بجلاء، من ثم أُحيلُ القارئ إلى مؤلفات الإمام الغزالي ليزداد فهما لهذا المقصد من حيث السمة والثبوت .

٢ – قول الإمام الغزالي في الشرط الثامن للنبوة : (أن يعجز الخلق عن معارضته – أي النبي– ويلحق بهذا شرط تاسع وهو كون المعجزة من جنس ما يتعاطاه أهل زمانه، ثم يحصل إلى الرسول

إما بواسطة أشخاص الملائكة بأن يتمثل له بشرا سويا أو على صورة ما ، وإما بغير واسطة بأن ينقش الله تعالى – ذلك نقشا في الحاسة المتخيِّلة ، وقد قال تعالى ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾[1]. وهو ما يحصل في قوته الخيالية ، وهو المعروف بالإلهام ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾[2]. أو من وراء حجاب أو بواسطة ملك من الملائكة وهو الحجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء، ونبينا ﷺ قد ظهر على يده من خرق العوائد ما ظهر على أيدي الرسل ، وذلك ينقسم إلى ما بقي وإلى ما كان ، فمعجزاته من شق القمر وكلام الذراع ، وحنين الجذع ، واستدعاء المطر ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وجعل قليل الطعام كثيرا وغير ذلك .

وأما ما بقي فالقرآن وما أعلم به من الأشراط والدلول ، وقد كان ذلك ونحن نشاهده (...) ثم هذا القرآن الذي أعجز الخلائق عن آخرهم عن الإتيان بمثله إلى هلم جرا ، وكان أُمِّيًّا نشأ بين أميِّين لا معرفة لهم بالعلوم، فأتي بهذا القرآن الذي اشتمل على علوم الأولين والآخرين ، وكل من شك في نبوته ﷺ فليتأمل بعده ﷺ عن العلوم ، ثم لينظر القرآن وما ينطوي عليه من الصنائع العلمية من الإلهيات والمنطقيات والجدل والخطابة وسائر الأشياء التي حصَّلها الأولون والآخرون من العلوم وسميته علما أو فلسفة، وكيَّف فيه أشكال البراهين قائمة ، والجدل على وجهه والأقيسة على وجهها مع ما تجرد إليه من العلم الديني، وهي سياسة الخلق المعبَّر عنها بالأحكام الشرعية)[3].

فقد قدم الوحي الإلهي – القرآن الكريم – على معطيات العقول ، لأنه كلام الله تعالى الذي أوحاه إلى نبيه ﷺ، وأنه المصدر الذي تطمئن إليه القلوب ، وتأنس به النفوس ، وتهتدي به العقول،

---

(١) الشوري: ٥١.

(٢) القصص: ٧.

(٣) معراج السالكين. للإمام الغزالي ص ٩٩، ١٠٠ مرجع سابق. بتصرف يسير.

وأنه يستحيلُ معارضتُه أو الاتيانُ بمثله ، والإمامُ الغزالي يفتّق أفكاره ويولدها من نصوص القرآن الكريم وكذا سنة النبي ﷺ، وتراه يدعم كل فكرة بشواهدَ دلاليَّةٍ لآية المحكم ودلالاته الحكمية، فإنه يولِّد الأفكار ويرتبها ويقسمها ويحللها ، ثم يستشهد عليها بآياته الحكيمة .

ولعل هذا يبدو من خلال قوله : (اعْلَم أن خيراتِ الدنيا والأخرةِ قد جمعت تحت خصلة واحدة وهي التقوىٰ، وتأمَّل ما في القرآن من ذكرها، كم علَق بها من خير، وكم وعد عليها من ثواب، وكم أضاف إليها من سعادة. ثم اعلم أن الذي يختص بهذا الشأن من أمر العبادة ثلاثة أصول:

الأول: التوفيق والتأييد أولاً حتىٰ تعمل، وهو للمتقين، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[1].

والثاني: إصلاح العمل وإتمام التقصير حتىٰ يتم ، وهو للمتقين ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾[2] .

والثالث: قبول العمل إذا تم وهو للمتقين، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[3]) [4] .

ويبدو هذا المقصد بجلاء ووضوح في مصنف الإمام الغزالي الكبير: إحياء علوم الدين والذي زخر بالشواهد الدالة علىٰ ذلك من خلال إجراءاته التطبيقية في تكوين مشاهد الكتاب المائلة في تبوياته وتفريعاته

وحيث إن الإمام الغزاليَّ أشعريُّ المذهب، فإنه يلتزم بأصول مذهبه المصدرية، ومقررات مذهب أهل السنة والجماعة في الحفاظ علىٰ صداره النص القرآني الكريم وروايات السنة النبوية الشريفة.

ويقول في المستصفىٰ : (القطب الثاني في أدلة الأحكام وهي أربعة: الكتاب والسنة والإجماع،

---

(١) النحل:١٢٨

(٢) الأحزاب: ٧١.

(٣) المائدة: ٢٧.

(٤) روضة الطالبين وعمدة السالكين. للإمام الغزالي ص ٧٠، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، ط: ٤/ ٢٠٠٦ – ١٤٢٧ هـ.

ودليل العقل المقرر على النفي الأصلي . فأما قول الصحابي وشريعة من قبلنا فمختَلفٌ فيه .

الأصل الأول من أصول الأدلة: كتاب الله تعالى وأعلم أنا إذا حققنا النظر بان أن أصل الأحكام واحد، وهو قول الله تعالى، إذ قول الرسول ﷺ ليس بحكم ولا ملزم، بل هو مخبر عن الله تعالى أنه حكم بكذا وكذا فالحكم لله تعالى وحده ، والإجماع يدل على السنة ، والسنة على حكم الله تعالى . وأما العقل فلا يدل على الأحكام الشرعية ، بل يدل على نفي الأحكام عند انتفاء السمع ، فتسمية العقل أصلا من أصول الأدلة تجوُّزٌ على ما يأتي تحقيقه . إلا أنا إذا نظرنا إلى ظهور الحكم في حقنا فلا يظهر إلا بقول الرسول ﷺ ، لأنا لا نسمع الكلام من الله تعالى ولا من جبريل . فالكتاب يظهر لنا بقول الرسول ﷺ فإذن إذا اعتبرنا المظهر لهذه الأحكام فهو قول الرسول ﷺ فقط ، إذ الإجماع يدل على أنهم استندوا إلى قوله . وإن اعتبرنا السبب الملزم فهو واحد وهو حكم الله تعالى ، لكن إذا لم نجرد النظر وجمعنا المدارك صارت الأصول التي يجب النظر فيها أربعة كما سبق)[1] .

(**والأصل الثاني من أصول الأدلة:** سنة رسول الله ﷺ وقول الرسول ﷺ حجة لدلالة المعجزة على صدقة ولأمر الله تعالى إيانا باتباعه، لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى . لكن بعض الوحي يتلى فيسمى كتابا ، وبعضه لا يتلى وهو السنة . وقول الرسول ﷺ حجة على من سمعه شفاها . فأما نحن فلا يبلغنا قوله إلا على لسان المخبرين ، إما على سبيل التواتر وإما بطريق الآحاد ...)[2] الخ .

والأمثلة على ذلك كثيرة كائنة في مظانها التفصيلية تعرفها بوضوح في مؤلفاته.

---

(١) المستصفى . لأبي حامد الغزالي، تحقيق محمد عبد السلام عبد الشافي . الناشر دار الكتب العلمية، ط: ١/ ١٤١٣ هـ- ١٩٩٣ م.

(٢) المستصفى . للإمام الغزالي ص ١٠٤ .

المطلب الثاني

مقصد التوفيق بين النقل والعقل

من مقاصد منهج الإمام الغزالي في التفكير العلمي « التوفيق بين النقل والعقل» ، نظرا لأن توهم التناقض بين النقل الصحيح والعقل المنضبط الصريح خطأٌ بيَّن ، لأن الله تعالى أنزل النص ليخاطب العقل لا ليناقضه ، وليهديَه لا ليشفيه ، وليُبيِّن له لا ليلبسَ عليه ، وليجعلَه في قوة من المنطق القويم لا في أضاليل التشقيقات الجدلية التي تتأتى بالعقل عن فهم دلالاته ، وبقدر ما أوتي العقل عن أدوات وملكات تُعِينه على الفهم والفقه بقدر ما تتوافق مقرراته ونتائجه مع دلول النصوص ، بل وينفعلُ بها ويتماهَى معها في امتزاجٍ دلاليٍّ رائع البيان ، راقي البرهان ، سديد الاحتجاج .

وحيث إن العقل مناط التكليف ، وإنه الذي يتلقى عن الله تعالى ، فإنه المخاطب بفهم الأوامر والنواهي، ورافد النفس إلى المرغبات والزواجر ، وإلى إدراك الوعد والوعيد والثواب والعقاب، وحيث إنه مصدر الوعي والإدراك ، وإنه رافد من روافد المعرفة ، وحيث إنه محل الفيوضات الإلهية التي تفتِق له حجبَ الفهم فتميطَ له اللثام عن مجاهل الإدراك ، وتنقذَه من الوقوع في غيابات الفكر وعِيِّ المنطقِ، وتنشله من هذه الحيرة إلى آفاق اليقين، ومن الظن والخرص إلى العلم، ومن الإنكار إلى الإقرار والتصديق، وتهديه إلى فهم دلائل القدرة الإلهية في آفاق الكون وأعماق النفس .

وحيثما كان المذهب الأشعري مذهبا توفيقيا يوفق بين نصوص المنقول ودلالات المعقول ، وينصب ميزان الحق في شواهد العقول ، وطالما أنه يمثل حارسا أمينا للعقل أن يعودَ من رحلة تأمُّلِه خاسئًا خاويَ الوِفاضِ إلا من المعقولات المجردة التي تصطدم بشواهد المنقول وقاعدة التنزيه ، وبما أن الإمام الغزالي يدور فكره مع منطلقات المذهب الأشعري ، وتنقدِحُ مبادئه ومقرارته في عقله، لتمتزج بها آراؤه، ويَنقدِحَ بها ذهنُه ، وتتماهَي بها نتائجُ تفكيرِهِ العلميِّ، ولتنضبطَ بها مقدماتُه ونتائجُه، ويتوهجَّ بها عقلُه، وبما أنه كذلك عُني بهذه القضيةِ في إطار طلاقةِ النصِّ وحدودِ المعقولِ، ليجمعَ بذلك بين تقديسِ النصِّ وتقديرِ العقلِ، لاسيما أن منزِّل الكتاب هو بارئ الألباب، ولا يناقضُ ما برأ شيئًا مما أَنزل على رسله عليهم السلام وما أَوحي به إليهم ، ولتبقى قداسةُ الوحي الإلهة

منزهةً عن شطط العقول وغُلُوِّ الفُهوم ، ولتبقىٰ صفاتُ الذات العليَّةِ بعيدةً عن دنَس العقل ورواكد الفكر، ولِتبقىٰ دلولُ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة محفوظةً من التوهم والتكذيب والإنكار وسط موجاتٍ فكريةٍ عاتيةٍ من التأويلاتِ الفاسدةِ والتفسيراتِ الخاطئةِ والفُهوم المغلوطة لقضايا الدين، من خلال تأثُّرِ العقل بلَيِّ نصوص المنقول وتنزيلها علىٰ مقررات العقول، في نزوعات جامحة من التحكمات القسرية في دلالات النصوصِ ومعانيها، وتلبيسِ الحق الأبلج فيها بأهازيج العقول إذا ما تجردت من ضوابط التأمل والنظر ، وانحرفت عن القصد في الاعتقاد .

ومما يدل علىٰ نفاسة هذا المقصد عند الإمام الغزالي قولُه في بيان شرفِ العقل (وليس يخفي أن العلوم الدينية وهي فقه طريق الآخرة إنما تدرك بكمال العقل وصفاءِ الذكاء ، والعقل أشرف صفات الإنسان)[1] .

ويقول: (أعلمُ أن هذا – بيان شرف العقل – مما لا يحتاج إلىٰ تكلُّف في إظهاره ، لاسيما وقد ظهر شرف العلم من قِبَل العقل ، والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه ، والعلم يجري منه مجرىٰ الثمرة من الشجرة ، والنور من الشمس ، والرؤية من العين ، فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة ، أو كيف يُستَرابُ فيه ...)[2] .

ويقول في العقل : (وقد سماه الله نورا في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا ﴾[3]، وسمي العلم المستفاد منه روحا ووحيا فقال تعالىٰ :﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ ﴾... »[4]

وينكِرُ الإمام الغزاليُّ ذمَّ العقلِ بإطلاقٍ ، ويوجه من ذمَّ العقلَ بالمعقول بأن (السبب فيه أن الناس نقلوا اسم العقل المعقول إلىٰ المجادلة والمناظرة بالمناقضات والإلزامات، وهو صَنعةُ الكلام،

---

(١) إحياء علوم الدين. للإمام الغزالي ١ / ١٣ ،دار المعرفة – بيروت.

(٢) إحياء علوم الدين. للإمام الغزالي ١ / ٨٣ مرجع سابق.

(٣) النور: ٣٥.

(٤) الشورىٰ: ٥٢.

فلم يقْدِروا على أن يقرروا عندهم أنكم أخطأتم في التسمية ، إذ كان لا يَنْمحِي عن قلوبهم بعد تداول الألسنة ورسوخه في القلوب فذموا العقل والمعقول وهو المسمى عندهم)[1] .

ويبدو من خلال عرض الإمام الغزالي لمكانةِ العقل وطبيعةِ وظيفته ، أنه يفرق بين « العقل المنضبط » بضوابط النص ، والمتسق مع قواعد التفكير الصحيح ، وبين « العقل المجرد » المنعتق من كل القيود والمتجرد من ضوابط النص، والثائر في جدَليات عقيمة مفرغةٍ من قِيم الدين ، بالغةِ الإغراب في القصد، مناقضةٍ لقوانين المنطق الصحيح ، وثائرةٍ على السن الإلهية في الكون .

وقد أفرز العقل المجرد جدليات صاخبة في قُدّسية الذاتِ الإلهيةِ وقَداسةِ الصفاتِ الرحمانيةِ فاجترأ على اختصاصات الذات الإلهية ، وقيَّد إرادةَ الله تعالى ومشيئتَه في قضية الخلق الأول، ثم جَنَح إلى القول بالفيْض في خلق الكون تارةً ، والتوَلُّد تارةً أخرى ، وقيَّد علمَ الله تعالى بالكليات ، وأَنكرَ علمَه بالجزئيات، وحصرَ ـ مفهومَ التدبيرِ الإلهيِّ في أوَّليَّات الخلق تارةً ثالثةً ، بل ازداد جرأةً على ذلك فأَنكَر أن يكونَ للكون خالقا إلا الدهرُ أو الطبيعة، وأَنكَر أن يكونَ هناك حياةٌ أخرى ، فأَنكرَ البعثَ والحشر للحساب والجزاءِ ، وفرَّغ قضيةَ فصلِ القضاءِ الإلهيِّ بين العباد من مفهومها، وما ذلك إلا لأن العقل أَقحم نفسَه في قضايا الغيب المطلق ، فلا هو استطاع أن يتصور الغيبَ الأزليَّ فيقفَ على أوليةِ الوجود، ولا استطاعَ أن يستوعبَ الغيبَ السرمديَّ فيَعِيَ الوجودَ المطلقَ المجردَ من البداية والنهاية ، ولا استطاع أن يتصورَ الأبديَّ فيوقنُ أن لا نهاية له ، ولا استوعب مفهومَ الأمَدِيِّ فيقف على بداياته ونهاياته ، فلم يعرف أن الله تعالى أزلي[2] لم يزل وسَرمَديٌّ لا يزال، وأن ما سوى الله تعالى أمديٌّ، وأن ما في حدود الأمَدِ مفتقرٌ في بداياته ونهاياته إلى مدبرٍ حكيمٍ عليمٍ قادرٍ مريدٍ مصرِّفٍ فاعتاص في غيابات العقل، وحارَ في كهوف الفكر المظلم ، نظرا لانجدال عقله بجدليات عقيمة ،

---

(١) إحياء علوم الدين . للإمام الغزالي ١ / ٨٣ مرجع سابق .

(٢) أزلي : منسوب إلى الأزل ، وهو ما ليس بمسبوق بالعدم ، والموجود ثلاثة أقسام لا رابع لها : أزليٌّ أبديٌّ وهو الحق سبحانه وتعالى ، ولا أزلي ولا أبدي وهي الدنيا ، وأبدي غير أزلي وهو الآخرة ، وعكسه (أي أزلي غير أبدي – محال ، إذ ما ثبت قدمه استحال عدمه) . تاج العروس ٢٧ / ٢٤٢ .

لا تفيدُ نظرًا ، ولا تَبني برهانًا ، ولا تقطعُ شـكًّا ، وهي في جُلِّ وقتها تُثيرُ الشـكَّ أكثرَ مما تدعو إلى الحقيقة ، وتهدي إلى اليقين .

وقد أدرك الإمام الغزالي اعْتِياصَ العقلِ في مدارج التأمل والفكر والنظر في متعلقات الذات الإلهية ومفهومِها ، وأدرك الهوةَ الواسعةَ بين دُلول النقول وتصوُّر العقول، كما أدراك الهوة بين ظواهر النص وإيهامات العقول ، ورد ذلك إلى تقاصرِ العقل عن مراد الله تعالى ، وأن ظواهرَ النصـوص ودُلولَها تُحمل على معانٍ مَجازيَّة ما سـمحت بذلك اللغةُ، واتسـقت مع أصـل التنزيه ، كي لا يَحملُ ظاهرياتِ النص على التشـبيه والتجسـيم ، أو التعارضِ الموهوم بين الخلق الإلهي وخلق الأفعال الاختيارية، الذي يوهم المماثلة في اختصـاصـات الإله سـبحانه ونزوع المخلوقين إلى العقل، ويوهم تناظر إرادات المخلوقين مع إرادة الله تعالى.

وقد رأى الإمام الغزالي بين هذه الظاهريات الموهِمة ودلولِ النصوصِ ما يحملُ على تغاير الصورة اللفظية والمعنوية، ولا على انطباقِ ظاهر اللفظ على الأصل المحسوس ، أو التناظر والتماثل في الأفعال والإرادات فيقول في قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[1] . التنزيه – الواجب لله تعالى – وأنه ليس بجسم مصوَّر ولا جوهرٍ محدودٍ مقدرٍ ، وأنه لا يُماثل الأجسامَ في التقدير ولا في قبول الانقسامِ ، وأنه ليس بجوهرٍ ولا تحُلُّه الجواهر ، ولا بعرض ولا تَحُلُّه الأعراضُ، بل لا يماثل موجودا، ولا يماثله موجود ، ليس كمثله شيءٌ ولا هو مثلُ شيءٍ ، وأنه لا يحدُّه المقدار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا تحيط به الجهات ، ولا تكتنفه الأرضون ولا السماوات ، وأنه مستو على العرش على الوجه الذي قاله ، وبالمعنى الذي أراده ، استواءً منزهًا عن المماسَّة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال، لا يحمله العرش ، بل العرشُ وحملتُه به محمولون بلطف قدرته ، ومقهورون في قبضتِه، وهو فوق العرش والسماء، كما لا تزيده بعدا عن الأرض والثرى ، بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء ، كما أنه رفيع الدرجات على الأرض والثرى ، ومع ذلك قريب من كل موجود، وهو أقرب

---

(١) طه:٥.

إلى العبد من حبل الوريد ، وهو على كل شيء شهيد ، إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام ، كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام ، وأنه لا يَحِلُّ في شيء ولا يَحُلُّ فيه شيءٌ ، تعالى أن يحويَه مكانٌ كما تقدس عن أن يَحُدَّه زمان ، بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان، وهو الآن على ما عليه كان ، وأنه بائن من خلقه بصفاته، وليس في ذاته سواه، ولا في سواه ذاتُه ، وأنه مقدس عن التغيُّر والانتقالِ، ولا تحلُّه الحوادثُ، ولا تَعْتَريه العوارضُ، بل لا يزال في نُعوتِ جلاله منزها عن الزوال به ، وفي صفات كمالِه مستغنيا عن زيادة الاستكمال، وأنه في ذاته معلومُ الوجودِ بالعقول وفي الذات بالأبصار نعمةً منه، ولطفا بالأبرار في دار القرار ، وإتمامٌ للنعم بالنظر إلى وجهه الكريم)[1] .

وقد أراد الإمام الغزالي أن يقرب بين دلالات المنقول ودلالات المعقول في إطار من تقدير ثبوتيةِ النص، ودفعِ تصوراتِ العقل الحسيةِ ، كي لا يقع العقل في إطار التصور الحسي فيغرق في أوهام التشبيه والتجسيم والحلول ، ودلالاتِ الحدود الزمانية والمكانية ، وكيفياتِ الاستواء الإلهي التي تتنافى مع التنزيه وتنقُض نفيَ المثليَّة والنظيرِ والشبيه في قول الله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[2] .

ويجب أن لا يحمل تأويل الإمام الغزالي للآية الكريمة على أنه تحكُّمٌ من العقل ، ولا يفسَّر بسطوة المعقول على دلالة المنقول ، ولا بانتقاص العقل من سيادة النص ، لأن الإمام الغزاليَّ حمل مدلولَ الآية الكريمة ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[3] على مدلول آية كريمة أخرى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[4] وغاية ما يمكن أن يقال، أن الإمامَ الغزاليَّ فهم مفهوم الاستواء في الآية الأولى على أصل التنزيه في الآية الثانية بطريق التأمل والنظرِ والتدبرِ في دلالة الآيتين الكريمتين فمثَّل تأويلُه لآية

---

(١) قواعد العقائد في التوحيد. للإمام الغزالي ضمن مجموعة الرسائل ص ٩٦ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، ط: ٤/ ٢٠٠٦ – ١٤٢٧هـ.

(٢) الشورى: ١١.

(٣) طه: ٥.

(٤) الشورى: ١١.

الاستواء دُفُوعا لصور التشبيه المنفية في آية نفي المثلية عن الله تعالىٰ ، ولا يمكن القول بأنه تعطيل لدلول الآية الأولىٰ الدالة علىٰ هذه الصفة الخبرية لله تعالىٰ ، أو عدم فقه لدلالة الآية الثانية ، وقد خرج بهذا الفقه التأويلي بمعنىٰ الاستواء سليما من مساس التشبيه، وحدّثيات التجسيم لقرينتين : أولاهما: قرينةُ السياقِ المعنويةِ ، وثانيتُهما: قرينةٌ خارجةٌ عن السياق تُرسِّخ أصلَ التنزيه في آية أخرىٰ .

وما ذهب إليه الإمام الغزالي إنما هو مقررات المذهب الأشعري الوسطية، ومفردات مذهب أهل الحق، وأهل السنة والجماعة ، وقد أجملها في كتابه قواعد العقائد في التوحيد ، بيّد أنها تحتاج إلىٰ أمثلة يبرز بها وجه الحق في قضايا الاعتقاد لدىٰ أهل السنة والجماعة ، علىٰ أنها مبسوطةٌ في كتب المَذهب .

ومما ذكر في هذا الصدد إجمالا مما يدل علىٰ بيان مفهوم الاستواء إلىٰ جانب غيره من المفاهيم الأخرىٰ التي تصلح هنا للتمثيل ، والتي تنطبق مع ما ذكره الإمام الغزالي ما ذهب إليه الإمام الرازي في كتابه تأسيس التقديس إذ يقول في مقدمته : (الحمد الواجب قِدمُه وبقاؤه الممتنعُ تغيُّرُه وفناؤه، العظيمُ قدرُه واستعلاؤه ، العميمُ نَعماؤه وآلاؤه ، الدالُّ علىٰ وحدانيته أرضُه وسماؤه ، المتعالِي عن شوائب التعطيلِ والتشبيهِ صفاتُه وأسماؤه ، فاستواؤُه قهرُه واستيلاؤه ، ونزولُه بِرُّه وعطاؤه، ومجيئُه حكمه وقضاؤه ، ووجهُه وجودُه ، أو جوده وجباؤه، وعينُه حفظُه وعنايتُه واجتباؤه، وضحكه عفوه أو إذنه أو ارتضاؤه، ويدُه إنعامُه وإكرامُه واصطفاؤه ، ولا يَجرِي في الدارين إلا ما يريده ويشاؤه، العظمةُ إزارُه والكبرياءُ رداؤه)[1] .

والمتأمل في تأويلات كل من الإمامين الغزالي والرازي يجد فيها توافقا وانطباقا في جُلِّ وجوه التأويل ومسائله ، علىٰ أنه توفيقٌ بين المنقول والمعقول ، ولمزيد من إيضاح التقريب بينها في مخيِّلة القارئ قول الإمام الغزالي تحت ما سماه : « الوجود الشبهي » : فمثاله – أي هذا النوع من الوجود – الغضب والشوق والفرح والصبر وغير ذلك مما ورد في حق الله تعالىٰ ، فإن الغضب مثلا حقيقته أنه غليان دم القلب لإرادة التشفي ، وهذا لا ينفك في نقصان وألم، فمن قام عنده البرهانُ علىٰ استحالة

---

(١) تأسيس التقديس . للإمام الرازي – الأشعري – ومنه رسالة الإمام العلامة أحمد الكلابي في الرد علىٰ من صاحب التأسيس . عنىٰ بهما : أنس الشرقاوي – نشر دار نور الصباح، لبنان، ط : ١/ ٢٠١١م.

ثبوت نفس الغضب لله تعالىٰ ثبوتا ذاتيا وحسيا وخياليا وعقليا نزَّله علىٰ ثبوت صفة أخرىٰ يصدر منها ما يصدر من الغضب كإرادة العقاب ، والإرادة لا تناسب الغضب في حقيقة ذاته ، ولكن في صفة من الصفات وتقارنها وأثر من الآثار يصدر عنها وهو الإيلام)[1] .

وهكذا يوفق الإمام الغزلي بين نصوص المنقول المتضمن هذه الصفات « الوجودية الشبهية» كالنصوص الدالة علىٰ غضب الله تعالىٰ بأن المراد به العقاب لمَّا استحال حملُه علىٰ الحقيقة بأنه ثورةٌ وجدانيةٌ وانفعالاتٌ نفسيةٌ تصحبها تغيراتٌ عضويةٌ والله تعالىٰ منزَّه عن ذلك .

وقد نَحَىٰ الغزاليُّ في قضية « الاختيار والجبر » بين الجبرية الذين قالوا بأن الإنسان مجبر علىٰ أفعاله ، وبين اعتقاد المعتزلة بخلق الإنسان لأفعاله الاختيارية، وهذان حدان ممعنان في التناقض ، غير أن الإمام الغزالي قد نحىٰ منحىٰ التقريب في حد وسط بين الجبرية والمعتزلة فنفىٰ فكرة « الجبر»، كما نفىٰ فكرة خلق الإنسان لأفعاله، لأنه لا خالق في الكون إلا الله تعالىٰ ، ولا يمكن تعدد الخالقين، فألمح إلىٰ مفهوم غاب عن الجبرية والمعتزلة هو مفهوم الكسب، والإمام الغزالي إذ ذهب إلىٰ هذا الرأي لم يكن بمحض عقل ، ولكن كان بمدلول نص في قول الله تعالىٰ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[2] .

وأوَّلَ دلالةَ خلق الله تعالىٰ للإنسان والأعمال في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[3] بأن إيجاد الله تعالىٰ للفعل حاصل لكن الإنسان يكتسبه بالشروع فيه ، والتلبس وهذه نسبته إليه .

وفي هذا يقول الإمام الغزالي: (واعلم أن الله تعالىٰ أثبت فعل العبد في مواضع في قوله تعالىٰ: ﴿ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[4] وقوله تعالىٰ : ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾[5] ومحاه في

---

(١) كتاب فيصل التفرقة .للإمام الغزالي ص ٨٣، وانظر ما قبلها، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، ط: ٤/ ٢٠٠٦ – ١٤٢٧ هـ. ضمن مجموعة الرسائل.

(٢) المدثر: ٣٨

(٣) سورة الصافات: الآية: ٩٦ .

(٤) الواقعة: ٢٤ .

(٥) سورة التوبة: الآية: ٥ .

مواضع أخرىٰ نحو قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾[1]، والحكمة فيه أن الله تعالىٰ خالق الأفعال ومقدرها ، والعبد كاسبها وسببها ، فالعبد يعمل العبادة والله يجازي عليها ، ولولا نسبة هذه الأفعال خلقا وكسبا لما سمي عابدا ومعبودا ، فثبت أن العبد عابد كاسب ، وأن الله تعالىٰ معبود خالق) [2] .

ونخلص من قول الإمام الغزالي في تقرير هذا المقصد بأن قوله دار علىٰ ثلاثة أمور:

أولها : إثبات فعل العبد في مواضع من القرآن الكريم .

ثانيها : فعل العبد في مواطن أخرىٰ للقرآن الكريم .

ثالثها : بيان الحكمة من الإثبات والمحو ، بأن الحكمة تتلخص في خلق الله تعالىٰ الأفعال وكسب الإنسان لها. والقول بالكسب له شواهده في القرآن الكريم ، منها قول الله تعالىٰ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾، فالكسب جمع بين المحو والإثبات، وأزال ما يوهم التعارض النصي في ظواهر العقول.

ويقسم الإمام الغزالي الأفعال إلى قسمين :

(أحدهما : قوله ما يقع من العبد وهو الكسب المنسوب إليه ، ولهذا أنزلت الكتب وأرسلت الرسل . وثبتت الحاجة إلىٰ العقول لتقوم بالحجة وتتضح بها المحجة .

الثاني: ما يقع علىٰ العبد جزاءً ، وهو ما بيد الله تعالىٰ ويد العبد ، وكلاهما لا يكون إلا بما كسبت يد العبد لقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾[3] وما ناسب هذه الآية.

فمن فهم هذه الجملة أمكنه أن يفهم المراد من كلام الله تعالىٰ فيما هو المضاف إلىٰ العباد ، ومثال ذلك : قطع الجلاد يد السارق . يصح أن يقال : القاطع هو الجلاد ، لأنه كاسب ، ويصح أن يقال : إن الله تعالىٰ هو القاطع بيد الجلاد لأنه تعالىٰ هو المجازي للمقطوع لما بدأ منه ، ويصح أن يقال : إن

---

(١) الأنفال: ١٧ .

(٢) روضة الطالبين وعمدة السالكين. للإمام الغزالي ص ٢٦ مرجع سابق.

(٣) الشورىٰ: ٣٠.

السارق هو القاطع ليده، لأنه هو المبتدئ لما جناه فلا يقع عليه إلا ببعض ما كسبت يداه ، فيكون الفعل الواجد من الرب تعالىٰ جزاءً من المقطوع ابتداءً ، ومن القاطع كسبا ، ولا يناقض أحد أحدا، وأدلته واضحة في الكتاب)[1] .

وفكرة الكسب وسط بين طرفين، يمثل التمحور حول أحدهما دون الآخر أو الانقسام حولهما إشكالاً في الذهن وانقساما في الرؤية والتصور والنظر، وذلك لوضوح التناقض فيه بين قضتين إحداهما: خلق الله تعالىٰ أفعال العباد ، وثانيهما خلق الإنسان لأفعاله ، مما يؤدي إلىٰ اضطراب الحكم الناشئ عن ضحالة التصور ، والأمر الذي يؤدي إلىٰ اضطراب العبد في أفعاله بين إقبال وإحجام، أهو مجبور علىٰ الفعل أم مختار فيه ؟ .

وهكذا يتضح مقصد منهج الإمام الغزالي في التفكير العلمي وهو التقريب بين دلالات المنقول ودلالات المعقول .

---

(١) روضة الطالبين وعمدة السالكين. للإمام الغزالي ص ٢٦، ٢٧. مرجع سابق.

المطلب الثالث

إعـلاء قيـــم الاجتـــهاد

من مقاصد منهج الإمام الغزالي « إعلاء قيم الاجتهاد » في فقه النصوص الشرعية ودقائق دلالاتها، وتوليد الدلالات العقلية منها من خلال منظور تأملي فاحص يفضي إلى النظر السديد والاستنتاج القويم ، تأسيسا لفكر منضبط ، وعقلية متوازنة ، ونظرا لأن الإمام الغزالي ذو عقلية متوجهة وذهنية متوقدة نشأت عن سعة اطلاعه ودراساته العلمية لكثير من العلوم والاتجاهات السائدة في عصره ، ونظرا لما يتمتع به من طاقات إدراكية نأت به عن أسر التقليد ، ونيِّر الظاهر ، مما دفعه إلى التفلت من قيود التقليد يسبح في آفاق الاجتهاد، إضافة إلى آرائه الثائرة على العقل المجرد، ونظرا لما يتمتع به من مخيلة قوية تجعله ماهرا بالتصوير الدلالي والتنظير الفكري وقوة الاستقراء، وعمق التحليل، وبراعة الاستنتاج ، يمازج بين النص والعقل وبين مدلولات النصوص ودلالات العقول، يعلي من قيمة النقل ويخفض له جناح العقل ، ونظرا لما تمتع به من وفرة الدراسات الأصولية والمنطقية، والفلسفة وعلم الكلام والفقه ، وغير ذلك من العلوم ، التي ساهمت في مزيد من أَلَقِه وتوهُّج عقلِه وتبوئه مكانة عالية بين علماء عصره.

فنظرا لكل هذا استطاع الإمام الغزالي أن يكون واحدا من أعلام المجددين في الإسلام على مدى العصور، وقد بزغت آراؤه التجديدية في مرحلة فكرية عاتية أموجها . وتداخلت فيها الأهواء بالجدليات، وتناقضت فيها الرؤى والتصورات، واستشرت فيها الزندقة ، وغلت تأويلات الباطنية فلبس ذلك على بعض الناس أمر دينهم ، وجعلهم في حيرة من أمرهم ، فشمر الإمام الغزالي عن ساعد الجد، وقدح ذهنه في حاجة الأمة إلى إعلاء قيم الاجتهاد ، الذي بات ضرورة تفرضه التناقضات والجدليات الثائرة في الوسط الفكري آنذاك .

وقد أدرك الإمام الغزالي أن التجديد الفكري في عصره ضرورة لا مفر منها ، ولا مناص عنها، للرجوع إلى منابع الإسلام الصافية ، وأدرك أنه لن يتم إلا بأمور نستنبطها من خلال مؤلفاته الكثيرة منها ما يأتي :

١ – ضرورة إعادة بناء العقل الإسلامي وتشكيله ، وإحكام تكوينه وصياغته في ضوء التحديات المحدقة بالأمة .

٢ – حتمية استقراء واقع الفلسفات والجدليات المناقضة لتعاليم الإسلام ودراستها بصورة تجعل الدارس لها حاذقا فيها ماهرا بها كي يستطيع أن يرد على ترهاتها، وينقض بنيتها الاستدلالية، ويفوض مذهبها الفكري .

٣ – ضرورة صياغة علوم الإسلام صياغة جديدة تمكن المشتغلين بها من مراجعة التحديات الفكرية والعقدية والدينية المحدقة بها .

٤ – الاستفادة بعلوم الكون والحياة في إعادة الطرح الفكري العقدي ، وتكوين رؤية عقلية منطقتيه فلسفية حكمية تؤصل لفلسفة إسلامية راشدة قادرة على مواجهة التحديات العقدية والفكرية والفلسفية، ومن خلال قراءة جديدة للنصوص الدينية المصدرية ، وإضفاء صيغة جديدة على مفهوم الاجتهاد، وتمثلت في التحول بالاجتهاد إلى الاجتهاد في فقه النصوص الشرعية بدلا من قصر الاجتهاد على القضايا التي لم يرد فيها نص ، مما فتح له آفاق التفكير العلمي المنضبط، القائم على النظر السليم والفكر السديد ، الأمر الذي جعل الإمام الغزالي يتخطى دائرة التفكير فيما هو كائن من العلوم إلى التصنيف العلمي لعدد من العلوم الإسلامية في مجالات العلم المختلفة ، والتأسيس لحركة إبداعية تجديدية ، تبرز قيمة الإسلام في استيعاب طاقات الكون، وحركة الحياة ، وتوظيفها لخدمة قضايا الدين والدعوة إلى الإسلام برؤية وسطية في إطار من البراهين والحجج، التي تفيد العلم وتحصل اليقين ، وتكشف تهافتَ دعاوى المنحرفين والمضللين والزائغين من أصحاب الأهواء التي قامت على الخرص والوهم والظن ومحض التخيل، واستنطاق القرائح بما يصادم الحق ، ويذري بقيم اليقين فيبذر بذور الشك والحيرة والتردد والمروق من الدين، والوقوع في نير التشبيه والتجسيم والحلول .

لذا ترى الإمام الغزالي في مقدمات مصنفاته يلمع إلى مقاصد التصنيف في إشارات واعية، وبينات تخدم عمليتي الإقناع والاقتناع العقليتين . فتراه يقول في مقدمة كتابه " الحكمة في مخلوقات الله تعالى": (إنه لما كان الطريق إلى معرفة الله سبحانه والتعظيم له في مخلوقاته ، والتفكر في عجائب مصنوعاته ، وفهم الحكمة في أنواع مبتدعاته ، وكان هو السبب في رسوخ اليقين ، وفيه تفاوت

درجات المتقين ، وضعت هذا الكتاب منبها لعقول أرباب الألباب بتعريف وجوه من الحكم والنعم التي يشير إليها معظم أي الكتاب . فإن الله تعالى خلق العقول ، وكمل هداها بالوحي ، وأمر أربابها بالنظر في مخلوقاته ، والتفكر والاعتبار مما أودعه من العجائب في مصنوعاته لقول الله تعالى ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١ ﴾[1] وقوله :﴿ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[2] ، إلى غير ذلك من الآيات البينات والدلالات الواضحات التي يفهمها متدبرها ، والمترقي في اختلاف معانيها يعظم المعرفة بالله سبحانه التي هي سبب السعادة والفوز بما وعد به عباده من الحسنى وزيادة)[3] .

فغير بذلك مجاري النظر المادي إلى المادة واستنطق من المادة دلالات العناية الربانية والقاهرية الإلهية إذ لم يكتف بالوقوف على ظواهرها ، وإنما سير دلالاتها وأوضح إشاراتها وأجلى بيناتها فجعلها ناطقة بتوحيد الخالق سبحانه وتعالى محققة لليقين في نفس العبد ، فتهافتت أمام هذا الكتاب دعاوى الماديين وانفرط به عقد حجاجهم ، واعتاصت في مساربها بنات أفكارهم .

ويقول الإمام الغزالي في مقدمة كتابه معراج السالكين : (اعلم أيها الأخ أن الباعث على إسعافك في مطلوبك غرضان مهمان ، ولما اقتصرت في طلبك على موافقتهما ودارت رغبتك على تحصيل حقيقة مقصودهما، واقتصرت همتك من بين العلوم على العلوم الإلهية، وزعمت أن مقصودك طلب الخلاص من شر الاعتقادات الفاسدة والهرب من الآراء المجانبة للحق المعاندة، رأيت التنبيه على الغرضين المذكورين لتستوجب العذر فيما انتدبنا إليه، وليكون ذلك المهم الأكبر الذي نبهنا عليه)[4].

من ثم يقول في بيان الغرض الأول : من تأليف هذا الكتاب : (أيها الأخ ما شاهدناه من فساد الزمان ، وأخذه في الازدياد ، وكثرة الآراء ، وفساد الاعتقاد ، وعدم ذابٍّ يبذل فيها الاجتهاد، ويمرها

---

(١) يونس: ١٠١.

(٢) الأنبياء: ٣٠.

(٣) الحكمة في مخلوقات الله تعالى. للإمام الغزالي ص ٥، ٦.

(٤) معراج السالكين. للإمام الغزالي ص ٥٥، ٥٦.

على كف الانتقاد ولولا سياسة الملك لعمت الخافقيْن ظلمُها ، ولرسَخ في كل الأقطار قدمُها ليقضي الله أمرا كان مفعولا ، ويُبقِيَ رسما كان إبقاؤه عليه وعدا مسؤولا ، ولكن تعاقب الزمان وطرو الحوادث، وكثرة الصوارف ، وفتور الهمم داعية إلى الفساد ، والداء يزداد كل يوم أغذية السوء كالذنوب، فرأيت إبراز هذه النبذ لتكون مغنية للسائلين ، ومعينه للسالكين ، ومنفعة باقية في الآخرين)[1]

وقد بين الإمام الغزالي في هذا التعليل عدمَ انشغال علماء المسلمين بدراسة آراء المخالفين لمذهب أهل الحق، لما ظنوه شغلا عن علوم الدين، ولم تكن ردودهم عليها إلا من خلال ما يعلمونه من نصوص وقناعات ذاتية لم يبذلوا الجهد في الوقوف عليها والنظر فيها وتحليلها ونقدها وبيان بطلانها، والذي منع من سيطرة تلك الآراء رغم خطورتها هو حزم السلاطين في معاقبة أصحابها وليس اجتهادا علميا في معرفة بواطن أفكارهم وطرائق حجاجهم .

وقد دعاه ذلك إلى الاجتهاد في طلب علومهم والرد عليها من خلال مقدماتهم ونتائجهم وأدلتهم مستنطقا آي الكتاب الكريم والسنة الشريفة بتوليد رؤى جديدة تستوعبها هذه النصوص في هذا الضرب من الاجتهاد الذي فاق فيه أقرانه من علماء عصره ، وما زال نتاج الإمام الغزالي العلمي في صنوف المعرفة المختلفة مصدر إلهام للطالبين علوم الدين ، والناهمين لتجديد الفكر وقوة تشكيل العقل ، والاجتهاد العلمي الجاد والمتميز ، إسهاما في بناء معرفي راشد ومنضبط ، كانت هذه أبرز المقاصد المنهجية لمنهج الإمام الغزالي في التفكير العلمي ، والضبط الإدراكي ، وصيانة الوعي ، وتنمية القدرات الذهنية والطاقات المعرفية .

---

(١) المرجع السابق ص ٥٦ ، وراجع ما بعدها .

المطلب الرابع

مقصد ترسيخ فقه المآلات

في مواجهة الصيرورات الفكرية اللاواعية

من مقاصد منهج التفكير العلمي عند الإمام الغزالي « ترسيخ فقه المآلات » ، وأقصد به ترسيخ الفقه الاستشرافي لما تؤول إليه الأفكار في صيرورتها الكبرى انطلاقا من آنية الطرح إلى آفاق الاستقبال الزمني، أي توقع مسارات التفكير ومنحنياتها ، والمتغيرات الفكرية المترتبة عليها ، وما قد تمثله من خطوة كبيرة على التفكير الواعي ، الذي يعتمد على قوة النظر وسلامة التصور ، ومداد البصيرة الإيمانية .

ولا غرو أن نقرر أن ثمة تناسبا عكسيا بين ظاهرتي «الفكر الواعي» و« الفكر اللاواعي »، فبين «الوعي» و« اللاوعي » علاقة تضاد قوية وتناقض سافر ، فهي تعني « العقلانية » و«اللاعقلانية » ولابد من الفصل بين حدي الظاهرتين ، وليس من المنطقي اعتبار تكافؤهما في المعنى أو تناظرهما في المقصد، أو تماثلهما في الاستدلال ، أو تشابههما في التصور، ولما كان الأمر كذلك بات واضحا حتمية الفصل بين حدي الظاهرتين ، وبيان خطأ الأفكار القائمة على اللاوعي، و«اللاإدراك»، بل وبيان تصادمها مع مقررات النظر الصحيح والعقل السديد ، وذلك أن استواء المرجحات لا يمكن أن يرد عقلا في المتناقضات فضلا عن وروده في الأدلة في إطار الاستدلال لا سيما على القضايا العقدية والتشريعية والأخلاقية، وذلك في أصل الاستدلال ، لكن قد تستوي المرجحات في التناظر الدلالي في شواهد الاستدلال المستنبطة من الأدلة أو في تلك الكائنة بها، ويرجع استواؤها إلى أحد الأمور الآتية:

١ – إما أن يرجع الاستواء إلى قوة الدليلين المتناظرين من حيث رتبة النص ودرجته .

٢ – يرجع إلى قوة الاستشهاد في كلا الدليلين في عملية الاستنباط الدلالي، وانتزاع الأحكام من أدلتها .

ويراعى في الترجيح في هذه الحالات اعتبار ما تؤول إليه المصلحة، ويرفع به الحرج والعنت والمشقة على المكلفين ، أو يؤخذ بأيهما طالما صح الاستشهاد ، وسلم الاستنباط من التشويش العقلي. فإن كان استواء المرجحات متوهما لقصور نظر الناظر وضحالة فهمه وعدم قدرته على تمييز أوجه الاختلاف بين

الاستشهادات النصية أو العقلية ألزم الحجة بقصور اعتقاده باستواء المرجحات في الأدلة .

على أن ثمة فرقا بين «التكافؤ الدلالي» [1] و « استواء المرجحات» ، فالتكافؤ الدلالي يعني تساوي الأدلة في الدلالة على النقيضين ، بحيث يُقطَع بصحة الأدلة في كل منها ، وهذا باطل شرعا وعقلا، إذ لا يمكن أن تتكافأ أدلة الاعتقاد بوجود الله تعالى والإلحاد فيها ، كما لا يمكن أن تتكافأ أدلة على وجوب الإيمان بالله تعالى على المكلفين وعدم وجوبه عليهم ، لأن القول بعدم وجوبها مسوغٌ للكفر بالله تعالى ، كما لا يمكن ورود القول بتكافؤ الأدلة في وجوب أصل تشريعي كالصلاة أو الصيام أو الزكاة أو الحج وفي عدم وجوبه ، لأن القول بعدم وجوب أي من هذه الأصول التشريعية يعني نفي كونها أصلاً من أصول العبادات في التشريع الإسلامي، ولا يعدو القول باستواء المرجحات في هذه الحالة كونه زعما لا دليل على صحته ، ولا صبر له على نقد .

وهذا منهج اعتمده السوفسطائيون في النظر في القضايا الكبرى كقضية الإيمان ، النشأة والمآل والمصير وغير ذلك، وهو منهج بيِّن الفساد في ذاته والبطلان في حجاجه .

أما القول باستواء المرجحات [2] فمتعلق بالمعاني الدلالية المستنبطة من الأدلة ، ولا يعني بالضرورة تكافؤ الأدلة، والمعاني قد تتناظر أو تتماثل أو تتشابه من حيث بنيتها ودلالتها ، واعتماد أي من الرأيين القائمين على هذا التناظر أو التماثل أو التشابه الدلالي يؤدي إلى رفع الحرج والمشقة ومراعاة مصالح العباد كما أشرت آنفا .

وأرى أنه لا يمكن استواء المرجحات وروده إلا في الحالات الآتية:

١ – استواء الأدلة من حيث القوة والصحة .

٣ – قوة الدلالات المستنبطة .

٤ – سلامة إجراءات الاستدلال من الخطأ أو القصور .

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل للإمام بن حزم تحقيق الدكتور عميرة والدكتور محمد نصر. ج٥، ص ٧٥ دار الجيل بيروت.

(٢) المرجع السابق

٥ – قوة انتزاع الحكم من الدليل وسلامته .

٦ – قبول الرأيين أو التصورين المختلفين للتطبيق .

٧ – ما يحقق اعتباره وتطبيقه مصلحة الأمة، وانتظام حياة الناس ورفع العنت والمشقة عن المكلفين.

وبناء على هذا يكون الفرق بين « التكافؤ الدلالي » و« استواء المرجحات » من حيث الحكم أن استواء المرجحات يعني أن كلا الرأيين صحيح . أما تكافؤ الأدلة فيعني أن كلا المتناقضين صحيح، وهذا يعني أن الإيمان صحيح والكفر صحيح ، وهذا ما لا يستقيم به دين ولا عقل . لأن دعوى صحة النقيضين محال في العقول السليمة

وقد اهتم الإمام الغزالي في فكره المقاصدي بإبراز المقاصد الدينية التي يبدي من خلالها جماليات وسطية الاعتقاد وجماليات التشريع ، من خلال مناظراته ومجادلاته مع خصومه من الفلاسفة والمتكلمين والباطنيين الذين أفسدوا دينهم باعتساف التأويل وفساد الرأي .

وتحقيقا لهذا المقصد حذر الإمام الغزالي من النزوعات التي تؤدي إلى فساد الاستدلال على قضايا الاعتقاد ، الأمر الذي يؤول بصاحبه إلى سقيم الاعتقاد إذا ما اعتمد في فهومه على التأويل بغلبات الظنون التي تفسد التصور ، وتفرغ الاستدلال من مضمونه ، ونظرا لما يؤول إليه الفكر والمعتقد من انحرافات فكرية وعقدية تفسد التدين ، وتشوش على القلوب ، وتلبِّس على العقول ، مما يؤدي إلى فساد مآلات الفكر والسلوك .

وتحت عنوان فصل في التأويل بغلبات الظنون من رسالته فيصل التفرقة يقول الإمام الغزالي: « من الناس من يبادر إلى التأويل بغلبات الظنون من غير برهان قاطع ، ولا ينبغي أن يبادر أيضا إلى كفره في مقام بل ينظر فيه ، فإن كان تأويله في أمر لا يتعلق بأصول العقائد ومهماتها فلا نكفره، وذلك كقول بعض الصوفية : إن المراد برؤية الخليل عليه السلام الكوكب والقمر والشمس وقوله: هذا ربي غير ظاهرها، بل هي جواهر نورانية ملكية ، ونورانيتها عقلية لا حسية ، ولها درجات في الكمال، ونسبة ما بينها في التفاوت كنسبة الكوكب والقمر والشمس ، ويستدل عليه بأنه عليه السلام أجل من أن يعتقد في جسم أنه إله ، حتى يحتاج إلى أن يشاهد أفوله . أفترى أنه لو لم يأفل أكان يتخذه إلها، لو لم يعرف

استحالة الإلهية من حيث كونه جسماً مقدراً ، واستدل بأنه كيف يمكن أن يكون أول ما رآه الكوكب والشمس هي الأظهر وهي أول ما يرىٰ ، واستدل بأن الله تعالىٰ قال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ ﴾ [1] ، ثم حكىٰ هذا القول ، فكيف يمكن أن يتوهم ذلك بعد كشف الملكوت له ، وهذه دلالات ظنية وليست براهين .

أما قوله : هو أجل من ذلك ، فقد قيل : إنه كان صبيا لما جرىٰ له ذلك، ولا يبعد أن يخطر لمن سيكون نبيا هذا الخاطر، ثم يتجاوزه إلىٰ قرب ، ولا يبعد أن تكون دلالة الأفول علىٰ الحدوث عنده أظهر من أدلة التقدير والجسمية .

وأما رؤية الكوكب أولا فقد روي أنه كان محبوسا في صباه في غار، وإنما خرج بالليل .

وأما قوله تعالىٰ أولا : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ ﴾ [2] ، فيجوز أن يكون الله تعالىٰ، قد ذكر حال نهايته ثم رجع إلىٰ ذكر بدايته ، فهذه وأمثالها ظنون يظنها براهين من لا يعرف حقيقة البرهان وشرطه – فهذا جنس تأويلهم . وقد تأولوا العصا والنعلين في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢ ﴾ [3] ، وقوله: ﴿ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ٦٩ ﴾ [4] .

ولعل الظن في مثل هذه الأمور التي لا تتعلق بأصول الاعتقاد تجري مجرىٰ البرهان في أصول الاعتقاد، فلا يكفر فيه ولا يُبدَّع . نعم إن كان فتح هذا الباب يؤدي إلىٰ تشويش قلوب العوام فيبدَّع به خاصة صاحبه في كل ما لم يؤثر عن السلف ذكره، ويقرب منه قول الباطنية إن عجل السامري مؤوَّل إذ كيف يخلو خلق كثير من عاقل يعلم أن المتخَذ من الذهب لا يكون إلهاً ؟ وهذا أيضاً ظن ،

---

(١) الأنعام: ٧٥.

(٢) الأنعام: ٧٥.

(٣) طه: ١٢.

(٤) طه: ٦٩.

إذ لا يستحيل أن تنتهي طائفة من الناس إليه كعبدة الأصنام ، وكونه نادرا لا يورث يقينا »[1] .

ويستطرد الإمام الغزالي قائلا : « وأما ما يتعلق من هذا الجنس بأصول العقائد المهمة فيجب تكفير من يغير الظاهر بغير برهان قاطع ، كالذي ينكر حشر الأجساد وينكر العقوبات الحسية في الآخرة، بظنون وأوهام ، واستبعادات من غير برهان قاطع ، فيجب تكفيره قطعيا إذ لا برهان على استحالة رد الأرواح إلى الأجساد . وذكر ذلك عظيم الضرر في الدين فيجب تكفير كل ما تعلق به، وهو مذهب أكثر الفلاسفة .

وكذلك يجب تكفير من قال منهم : إن الله تعالى لا يعلم إلا نفسه ، أو لا يعلم إلا الكليات ؛ فأما الأمور الجزئية المتعلقة بالأشخاص فلا يعلمها لأن ذلك تكذيب للرسول ﷺ قطعا . وليس من قبيل الدرجات التي ذكرناها في التأويل ، إذ أدلة القرآن والأخبار على تفهيم تعلق علم الله تعالى بتفصيل كل ما يجري على الأشخاص مجاوزٌ حدا لا يقبل التأويل ، وهم معترفون بأن هذا ليس من التأويل، ولكن قالوا : لما كان صلاح الخلق في أن يعتقدوا حشر الأجساد لقصور عقولهم عن فهم المعاد العقلي، وكان صلاحهم في أن يعتقدوا أن الله تعالى عالم بما يجري عليهم ، ورقيب عليهم ليورث ذلك رغبة ورهبة في قلوبهم ، جاز للرسول ﷺ أن يفهمهم ذلك ، وليس بكاذب من أصلح غيره ، فقال ما فيه صلاحه ، وإن لم يكن كما قاله .

ويرد الغزالي عليهم هذا بقوله – وهذا القول باطل قطعا لأنه تصريح بالتكذيب ، ثم طلب عذر في أنه لم يكذب ، ويجب إجلال منصب النبوة عن هذه الرذيلة ، ففي الصدق وإصلاح الخلق به مندوحة عن الكذب ، وهذه أول درجات الزندقة ، وهي رتبة بين الاعتزال وبين الزندقة المطلقة ، فإن المعتزلة يقرب منهاجهم إلا في هذا الأمر الواحد ، وهو أن المعتزلي لا يجوز الكذب على الرسول ﷺ بمثل هذا العذر ، بل يؤول الظاهر مهما ظهر به بالبرهان خلافه ، والفلسفي لا يقتصر في مجاوزته للظاهر على ما يقبل التأويل على قرب أو على بعد .

---

(١) فيصل التفرقة للإمام الغزالي ص ٨٦، ٨٧ دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، ط : ٤ / ٢٠٠٦م – ١٤٢٧هـ.

وأما الزندقة المطلقة فهي: أن تنكر أصل المعاد عقليا وحسيا ، وتنكر الصانع للعالم أصلا ورأسا »[1].

وبالتأمل والنظر في تحرير الإمام الغزالي لهذا الفصل الذي آثرت عدم التدخل في عرض نصوصه لعدم تشتيت ذهن القارئ يتبين لنا ما يلي:

١ – إنكار الإمام الغزالي على غلاة الصوفية إنكار حقيقة بعض المنصوص عليه في مواضع الاستدلال على إقامة إبراهيم عليه السلام الحجة على عبدة الكواكب وإمكانهم الإقرار بوحدانية الله تعالى .

٢ – إنكار حقيقة جسمية المستبدل به في بعض الأدلة المنتزعة من كتاب الله تعالى بغلبة الظن وبيان أنه لا يعدو كونه وهما .

٣ – بيان بطلان إنكار أصل الحدوث كإنكار حشر الأجساد والعقاب الحسي الأخروي القائم على التأويل المتعسَّف لمفهوم تحقيق مصالح العباد ، كما ذهب إلى ذلك المعتزلة ، ومحاولة تبرير ذلك بأنه يجوز للأنبياء قول غير الحقيقة للناس لحملهم على الصلاح ، لأنه لا يتحقق صلاحهم إلا بذلك، أي بتخويفهم من العقاب الأخروي ليحملهم على الإلزام بالصلاح ، وحمل ذلك على التقريب المعنوي، والحمل على الصلاح لا على الكذب – كما يرى الغزالي – محض تكذيب وافتراء على الأنبياء .

وبهذا يتضح مدى حرص الإمام الغزالي على ترسيخ فقه مآلات الاستدلالات والمعتقدات الخاطئة لما لها من الخطر العظيم على صيرورات الاعتقاد والتحول من الإيمان إلى الكفر ، ومن اليقين إلى الظن ، ومن الإقرار إلى الإنكار .

ولا يخفى أن الزعم باستواء المرجحات في مثل هذه الآراء وتكافؤ الأدلة في إثباتها غير وارد عقلا، ولا يمكن قبوله إن زعم إمكانية وروده، إذ أنه يعني صحة كل الآراء الواردة في الإثبات أو النفي، وهذا يناقض صريح المنقول وصحيح المعقول، كما لا يخفى أن معتقدا يقوم على هذه الترخيصات التي لا تعدو كونها هنات عقدية وترهات فكرية ، لا يصمد أمام النقد ولا يصبر على نقض .

ولا يمكن أن يترجح أو يَمْثُل في الاعتبار أن نبي الله إبراهيم عليه السلام كان في مقامه عابدا

---

(١) فيصل التفرقة للإمام الغزالي ص ٨٧، ٨٨.

للكواكب، وأنه ترقى في الاستدلال من عبادة الأجسام أو الأجرام الكونية إلى عبادة الله تعالى الواحد، فإن ذلك ينقض مقام النبوة ويذري بمفهوم رعاية الله تعالى لأنبيائه وصيانته لرسالاته إلى الأنبياء. والصحيح والثابت بدلالة مساقات الآيات القرآنية الكريمة أنه كان في مقام الحجاج والبرهنة لعبدة الكواكب على بطلان عبادتهم الكواكب [1] ، إذ أن الإله الحق لا يأفل أو يغيب ، أو يخضع لجهة أو يحيَّز بحيِّز ، أو يقيد وجوده مكان ، فالاستواء الترجيحي غير وارد عقلا في مقام هذه الاستدلالات الظاهرة التي لا تقبل اعتساف التأويل ، بل تتأبى على خطأ التفسير ، وما يترتب عليها من صيرورات عقدية خطيرة تنذر بإلحاد ، أو تفسير العقيدة الحقة تفسير ماديا حسيا ، وإفساد دلالات النصوص الشرعية ، والعبث بمقررات الاعتقاد الحق والنظر العقلي السديد .

هذا ويتوقف فقه المآلات على أمور منها ما يأتي :

١ – القياسات الدلالية المرجعية في موطن الاستدلال .

٢ – قوة المخيلة في العرض والحجاج .

٣ – المباحث الأصولية .

أولا : القياسات الدلالية المرجعية في موطن الاستدلال ، ويعني بها قياسات فقه المآلات على شواهد مرجعية ماثلة في النصوص تبين انحراف الفكر والمعتقد في صورة محاكاة افتراضية تكشف ما قد يحدث في المستقبل القريب أو البعيد من صيرورات فكرية تضرب في جذور الظلال والغواية تؤدي إلى الانسلاخ من الدين، أو التناقض مع ثوابته، مما يؤدي إلى ضبط القناعات والمعتقدات .

ثانيا : قوة المخيلة في العرض والحجاج : يتوقف فقه ترسيخ المآلات على قوة المخيلة التي تولِّد في الذهن مقدمات ونتائج ذهنية لما قد يؤول إليه الفكر والاعتقاد من تحولات خطيرة ، وبقدرة قوة المخيلة تكون قوة استبصار المآلات والصيرورات الكبرى أو الصغرى في مستقبل الفكر

---

(١) راجع : روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني للإمام الآلوسي ج٤ ، ص١٨٣ وما بعدها ومفاتيح الغيب للإمام الرازي ج١٣ ، ص٣٤

البشري والتحديات المحدقة بالأمة .

ثالثا : الدراية بالمباحث الأصولية والمنطقية الضابطة للتصور من خلال المقارنات أو القياسات للصيرورات الفكرية على شواهد وأحداث تاريخية ماضية تكشف التحولات الكبرى في حياة الأمم السابقة، وتستنتج ما قد تؤول إليه الأمم والحركات الفكرية والنزوعات العقدية في المستقبل، في إطار من التحليل الدقيق للشواهد القائمة والتصورات الذهنية لمآلات التغيرات في حياة البشر .

وهذا المستنبط من فكر الإمام الغزالي هو ما اعتمد عليه الغزالي في حجاجاته مع غلاة الفلاسفة والمتكلمين والباطنيين والماديين والدهريين والملاحدة والزنادقة الخارجين عن ربقة الدين المنكرين لأصوله وثوابته .

المطلب الخامس

تحقيق الأمن الفكري والمجتمعي

يعتبر « تحقيق الأمن الفكري والمجتمعي » أحد مقاصد منهج التفكير العلمي عند الإمام الغزالي، وهو مقصد بارز في أغلب تصانيفه ومؤلفاته العلمية المبهرة للعقول .

وأعني بـ « الأمن الفكري والمجتمعي » الضبط الفكري بتمرير نتائج العقول على حزمة من الضوابط النصية من آي الوحي الإلهي الكريم، وروايات السنة النبوية ، لضمان سلامته وعدم نزوعه إلى التفسير المادي لنصوص الدين ، المؤدي بالضرورة إلى الإلحاد ، أو على الأقل الانحراف عن التصور الصحيح لقضايا العقيدة والشريعة .

كما أعني بـ « الأمن المجتمعي » سلامة المجتمع من التشرذم ، وصيانة عقد الأمة من الانفراط والتشظِّي بفعل ثنائيات التفكير ، وتعدد الأطروحات الفكرية والعقدية المتناقضة التي تستقطب المجتمع إلى محاورها المتناقضة ، وتدفعه إلى التعصب البغيض والجدل الممقوت ، وتشظيه إلى فرق وجماعات يكفر كل منها الآخر ، الأمر الذي يسلم بالضرورات إلى تقاذف الأحكام بالتكفير والتفسيق والتبديع بينها ، وهذا يؤدي إلى انفراط عقد الأمة وإضعاف قوتها وشوكتها .

ولا ريب أن تحقيق الأمن الفكري يحفظ المجتمع من الذوبان في أتون الصراعات بين الأفكار الوافدة الغريبة عن الإسلام مفهوما ومعتقدا .

ولقد عُني الإمام الغزاليُّ بهذا المقصد فانبرى للتصدي للجدليات الفلسفية المادية والتأويلات الباطنية، وغلو بعض المتكلمين ، وإبطال نزوعات الزنادقة إلى إنكار الدين، أو إنكار بعض ثوابته وأصوله ، وإنكار أصل الوجود .

وقد تناول الإمام الغزالي نقضَ هذه القضايا في مؤلفاته العظيمة ورسَّخ فيها منهجَ الإسلام، ذلك المنهج الوسطيُّ الراشد، والمنضبط بضوابط الوحي الإلهي الحكيم ، وأبرز فيها مقاصد الإسلام الكلية والتفصيلية دون إفراط أو تفريط ، وتناول في كتابه القيم تهافت الفلاسفة [1] نقض القواعد

---

(١) راجع كتاب: تهافت الفلاسفة. للإمام الغزالي ص٤٩،٤٨.

الفلسفية العشرين، وهدم من خلالها آراءهم الجدلية حول قضايا الذات الإلهية والصفات ونشأة الكون ومصيره وصيرورته، وقضايا البعث والنشور والحساب وغير ذلك ، يستل من مقدماتهم ما يولِّده من مقدمات ، ويرتب عليها نتائجه بدحض مفترياتهم وجدلياتهم القاصرة، في إطار صيانة الفكر والمعتقد من غوائل الانحراف عن القصد والتوسط والاعتدال في تناولهم لهذه القضايا .

وفي هذا الإطار يفـرق الإمام الغزالي بين العلـم والمعرفة فيقول : « وأما المعرفة : فهي نفسُ القرب، وهو ما أخذ القلبُ وأثَّر فيه أثرا يؤثر في الجوارح . فالعلمُ كرؤية النار مثلا. والمعرفةُ كالاصطلاء بها، والمعرفة في اللغة: هو العلم الذي لا يقبل الشك، وفي العرف اسم لعلم تقدمه نكرة، وفي عبارة الصوفية المعرفة : هو العلم الذي لا يقبل الشك إذا كان المعلوم ذات الله وصفاته. فإن قيل ما معرفة ذات الله تعالى وما معرفة الصفات؟ يقال: معرفة الذات أن يعلم أن الله تعالى موجود واحد فرد وذات وشيء عظيم قائم بنفسه ولا يشبهه شيء ، وأما معرفة الصفات : فأن تعرف أن الله تعالى حي عالم قادر سميع بصير إلى غير ذلك من الصفات ، فإن قيل : ما سر المعرفة ؟ يقال : سرها وروحها التوحيد ، وذلك بأن تنزه حياته وعلمه وقدرته وإرادته وسمعه وبصره وكلامه عن التشبيه بصفات الخلق : ليس كمثله شيء .

فإن قيل: ما علاقة المعرفة ؟ يقال: حياة القلب مع الله تعالى (...) فإن قيل : ففي أي مقام تصح المعرفة الحقيقية ؟ يقال: في مقام الرؤية والمشاهدة بسر القلب، وإنما ليعرف ، لأن المعرفة الحقة في باطن الإرادة ، فيرفع الله تعالى بعضهم فيريهم نور ذاته وصفاته ﷻ من وراء حجاب ليعرفوه تعالى، ولا يرفع الحجب بالكلية لكي لا يحترق الرائي »[1] .

وبهذا ينأى الإمام الغزالي بطالبي العلوم والمعارف عن ظنون العقول وإغراق المدارك والذوق والوجدان في هواجس النفس وتوهمات العقول وخرصها بلا دليل وبينة ، وبهذا التحرير لمفهوم العلم والمعرفة يعوِّل الغزالي على العلم الصادق واليقين الجازم ، ويبطل مذاهب الماديين والطبيعيين والحسيين والتجريبيين . ذلك أن المعرفة القائمة على الحس والتجريب والنظر في مكونات المادة وقوانينها الضابطة لها إنما هي معرفة

---

(١) روضة الطالبين وعمدة السالكين ص ٢٨، ٢٩.

ظاهرة ، وفرق بين المعرفة الظاهرة والباطنة . فالمعرفة الظاهرة تبحث في المكونات والظواهر، ويستعان بها في استلهام الأدلة على وجود الله تعالى وقدرته وصفاته وأفعاله ، والمعرفة الباطنة أو القلبية بالله تعالى لا تقوم على مباحث العقول في الكون المادي الحسي ، لأنه يعتريها توهمات النظر ، من ثم كانت بحاجة إلى معرفة لا يتطرق إليها الوهم ولا تحوم حولها الظنون ، وهي ما تقرر بنصوص الوحي الإلهي الذي أوحاه الله تعالى إلى العالمين ليعرفهم بذاته تعالى .

وفي موضع آخر يقول الإمام الغزالي في معرض تحرير مفهوم « التسوية » و« النفخ » أي نفخ الروح في جسد آدم عليه السلام في غضون تفسيره لقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[1] .

يقول الإمام الغزالي: «أما التسوية: فهي عبارة عن فعل المحل القابل للروح وهو الطين في حق آدم عليه السلام ، والنطفة في حق أولاده بالتصفية وتعديل المزاج والتردد في أطوار الخلق إلى الغاية حتى ينتهي في الصفاء، ومناسبة الأجزاء إلى الغاية فيستدل لقبول الروح وإمساكها كاستعداد الفتيلة بعد شرب الدهن لقبول النار وإمساكها .

وأما النفخ: فهو عبارة عن اشتعال نور الروح في محل القابل، فالنفخ سبب الاشتعال، وصورة النفخ في حق الله تعالى محال، والسبب غير محال فعبر عن نتيجة النفخ بالنفخ وهو الاشتعال في فتيلة النطفة.

وأما صورته: فهو إخراج هواء من جوف النافخ إلى جوف المنفوخ فيه، وهو فتيلة النطفة – فيشتعل فيها. وأما السبب الذي اشتعل به نور الروح فهو صفة الفاعل وصفته في المحل القابل، وأما صفة الفاعل فالجود الذي هو ينبوع الوجود، وهو فياض بذاته على كل موجود حقيقة وجوده، ويعبر عن تلك الصفة بالقدرة، ومثالها فيضان نور الشمس على كل قابل الاستنارة عند ارتفاع الحجاب بينهما، والقابل هو الملونات لا الهواء الذي لا لون له. أما صفة القابل فالاستواء واعتدال الحاصل في

---

(١) الحجر:٢٩.

التسوية كما قال تعالى: .

ومثال صفة القابل: صفات المرآة قبل صقالاتها لا تقبل الصورة وإن كانت محاذية لها ، فإذا صقلت حدثت فيها صورة من ذي الصورة المحاذية لها ، فكذلك إذا حصل الاستواء في النطفة حدث فيها الروح من خالق الروح من غير تغيير في الخالق تعالى الآن ، لا بل إنما حدث الروح قبله لتغير المحل بحصول الاستواء الآن لا قبله .

وأما فيضان الجود ، فالمراد به أن الجود الإلهي سبب لحدوث أنوار الوجود في كل ماهية قابلة للوجود، فعبر عنه بالفيض لا كما نفهم من فيض الماء من الإناء على اليد ، فإن ذلك عبارة عن انفصال جزء مما في الإناء واتصاله باليد، فإن الله سبحانه يتعالى عن مثل هذا .

وأما كشف معنى ماهية الروح ومعرفة حقيقته فهو من السر الذي يؤذن لرسول الله ﷺ في كشفه لمن ليس من أهله، فإن كنت من أهله فاسمع واعلم أن الروح ليس بجسم يحل في البدن حلول الماء في الإناء، ولا هو عرض يحل في القلب أو الدماغ حلول السواد في الأسود والعلم في العالم، بل هو جوهر لا يتجزأ باتفاق أهل البصائر ؛ لأنه لو انقسم لجاز أن يقوم بجزء منه العلم بالشيء وبجزء آخر منه الجهل بذلك الشيء بعينه فيكون في حالة واحدة عالما بشيء وجاهلا به ، وذلك محال، فدل بذلك على أنه واحد لا ينقسم »[1] .

وتحقيق الإمام الغزالي قضية الخلق وما يتعلق بها من مفاهيم يحقق الأمن الفكري لمسارات التأمل والتدبر في ظواهر الوجود، وبيان حدود معرفة ماهياته ووظائف مكونات الإنسان إذ يقول على ضابط التأمل والتدبر في إطار المقدور للعقل واللامقدور له، وفي إطار إطاقة الاستيعاب والفهم وعدم إطاقته، وبهذا يحفظ العقل من التخبط في مسارات فكرية خاطئة ، بل وضالة .

والمتأمل الحاذق يفهم تحرير الإمام الغزالي للقضية، ويستل منها تصوراتِ ونتائجَ مناقشته لآراء من تخبطوا في مبادئهم الفلسفية في نشأة الكون والإنسان وأخطاءهم في تفسيرها، ويستطيع أن يستلهم منها ما ينقض مذهب التطوريين، بل وينقض أصل نظرية التطور اللاعقلانية، والتي صبغت تفسير

---

(١) روضة الطالبين وعمدة السالكين ص ٣٥، ٣٦ مرجع سابق.

نشأة الكون بآراء تصدم مع أصل « الخلق الخاص للأجناس والأنواع » والذي قرره الوحي الإلهي الكريم ، وبينته الكتب الإلهية السابقة رغم ما بها من شواهد التحريف .

ورغم أن هذه النظرية قد ووجهت بتصورات ورؤىٰ واستدلالات ناقضة لمحتواها – بعد أن ذاعت في الغرب – تخطت الأسس البيولوجية والبيئية التي قامت عليها ، فاخترقت أروقة السياسة الغربية ، بل والدولية بعد تفسير الافتراض الذي قامت عليه «البقاء للأقوىٰ» تفسيرا سياسيا وصار أساسا من أسس الأنظمة السياسية في تلك الدول [1]

ومن الجدير بالذكر أن نظرية التطور لدارون كانت قد قامت علىٰ أساسين مبدئيين يدعم بها زعمه بتطور الإنسان من خلايا وحيدة إلىٰ أن صارت مردة ثم تطورت القردة إلىٰ الإنسان.

أما عن الأمن الاجتماعي فهو بارز في تلك الرسالة التربوية العظيمة التي ألقها الإمام الغزالي ليؤصل من خلالها الأسس التربوية في نظام التربية الإسلامية [2] والتي تضمنت المبادئ الآتية :

١ – تعميق الإيمان بالله تعالىٰ وترسيخ اليقين بتدبيره .

٢ – مسئولية الأسرة عن التربية الراشدة للأبناء .

٣ – إيقاظ الضمير الفردي والمجتمعي لضبط الأفعال والنزوعات السلوكية لمحاربة الانحراف والفساد القيمي والأخلاقي .

٤ – بيان آثار النزوعات السلوكية المنحرفة وبيان آثارها علىٰ علاقة الفرد بربه وبأسرته وأصدقائه والمجتمع من حوله .

٥ – بيان أن الأمن المجتمعي لن يتحقق إلا باستقامة علىٰ هوىٰ الوحي الإلهي والتزام أصول وقواعد ومبادئ التشريع الإسلامي .

---

(١) راجع في هذا كتاب أخطاء نظرية التطور أخطاء لا يريدونك أن تعرفها دهيثم طلعت ، نشر مكتبة نور الإلكترونية -NOOR BOOK.COM، وثمة مئات الكتب صدرت في هذا الصدد لعلماء ومفكرين مسلمين وغربيين، من المفيد الرجوع إليها لتدعيم الرؤية.

(٢) رسالة أيها الولد. الإمام الغزالي دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان ط ٤ .٢٠٠٦

٦ – التذكير بالرقابة الإلهية لأفعال العباد والإحاطة بسر العبد مما يوسوس به نفسه قبل صيرورته إلى سلوك وأفعال وقيم .

٧ – ترسيخ القيم الخلقية المتمثلة في أصول الأخلاق وما يتفرع عنها .

ولما كان للفكر والقناعات والمعتقدات أثر بارز في تكوين الأخلاق وضبط النزوعات السلوكية حرص الإمام الغزالي على محاربة التيارات المادية والإلحادية التي ظهرت في عصره ، وإن كانت تضرب بجذورها العميقة إلى الفلسفات القديمة .

الخاتمـــة

تشتمل الخاتمة ما يأتي :

١ – النتائج .

٢ – التوصيات .

أولا : أهم النتائج :

١ – دراسة آراء الخصوم والتعمق في فهمها ومعرفة أهدافها ومقاصدها ومنازعها ومشاربها واتجاهاتها يفيد في تكوين رؤية علمية موضوعية عقلية دقيقة في نقد رؤاهم وتصوراتهم وآرائهم .

٢ – تمكن الإمام الغزالي من معالجة الإشكاليات الفكرية التي واجهته في بيان رؤيته المقاصدية والمنهجية ، والتي مثلت تحديا كبيرة افتفرت إلى عقلية موسوعية مبدعة تحررت من جمود التقليد ، وانطلقت إلى آفاق الإبداع .

٣ – تمكن الإمام الغزالي بحذقه ومهاراته ورؤاه الإبداعية من الدفاع عن مذهب أهل السنة والجماعة لاسيما مدرسته الأشعرية العريقة التي تمثل رؤية توفيقية وسطية بين النقل والعقل، ودفاعه عن الإسلام وقضاياه من خلال رؤية مقاصدية منهجية منضبطة.

٤ – تغلب الإمام الغزالي على التناقضات العقدية والفكرية والمذهبية التي طفرت على الساحة الفكرية في عصره ممثلة اتجاهات متباينة أحيانا ومتناقضة أحيانا أخرى ، ورؤى فلسفية زائغ بعضها ومضطرب بعضها الآخر ، وقد تمكن من تقديم رؤية نقدية واعية أظهرت تهافتها وزيفها .

٥ – أهمية التكوين البناء المنهجي في التأسيس لمنهج على قادر على معالجة الإشكاليات الفكرية، فضلا عن تقديم تصور صحيح وأطروحات فكرية وعلمية مقاصدية ناضجة في سائر مجالات العلم والمعرفة .

٦ – حققت معالجات الإمام الغزالي المقاصدية والمنهجية تميزا بالغا في تحقيق مقاصدها وأهدافها ، وأثرت الجهود الفكرية والدعوية بفوائد منهجية مرشدة للفكر ، ضابطة للإدراك .

ثانيا : أهم التوصيات :

١ – العناية بشمولية المعرفة والتنوع العلمي والثقافي للدعاة إلى الله تعالى في مواجهة التحديات المحدقة بالدين والأمة .

٢ – ضرورة عناية المراكز البحثية والفكرية برصد الظواهر الفكرية ومعالجتها في حينها لا تمثل اتجاهات تشكيلية تكونينه غالية ومتطرفة، أو موهنه مفرَّطة لعقول الشباب ، وذهنية المجتمع .

٣ – الاهتمام بالدراسات المنهجية والمقاصدية والتأسيس لمنهج علمي منضبط ليكون مشروعا علميا يعنى به مفكرو الأمة وتدعمه المؤسسات الرسمية .

٤ – ضرورة العناية بدراسة التراث العلمي للإمام الغزالي والإفادة منه في مواجهة التحديات الفكرية وتكوين عقليات قادرة على التعامل برؤية إبداعية مع المستجدات الفكرية على الساحة الإسلامية في إطار الفقه المقاصدي للإسلام.

المصـــــادر والمراجـــع

١ - الإبانة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري ، تحقيق د / صالح التميمي – دار المسلم للنشر – الرياض ، ط : ١ / ١٤٣٢ هـ – ٢٠١١ م .

٢ - إحياء علوم الدين . للإمام الغزالي ، دار المعرفة – بيروت .

٣ - صحيح الإمام مسلم ، دار إحياء التراث العربي بيروت.

٤ - تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي، دار الكتب العلمية بيروت .

٥ - تأسيس التقديس . للإمام الرازي – الأشعري – ومنه رسالة الإمام العلامة أحمد الكلابي في الرد على من صاحب التأسيس . عنى بهما : أنس الشرقاوي – نشر دار نور الصباح ، لبنان ، ط : ١ / ٢٠١١ م

٦ - تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود ، دار إحياء التراث العربي.

٧ - تفسير الإمام الطبري، دار الغد العربي بدون تاريخ.

٨ - تفسير الإمام القرطبي ، دار الغد العربي بدون تاريخ .

٩ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، دار التراث بدون تاريخ.

١٠ - التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ، تحقيق : صدقي محمد جميل ، دار الفكر – بيروت – لبنان ، ط : ١ / ١٤٢٠ هـ .

١١ - تفسير روح المعاني للإمام . الألوسي ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط : ١ / ١٤١٥ هـ ،

١٢ - تهافت الفلاسفة . للإمام الغزالي دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط(١) ١٤٢١/ ٢٠٠٠م.

١٣ - الجام العوام من مجموعة رسائل الإمام الغزالي ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، ط : ٤ / ٢٠٠٦ م – ١٤٢٧ هـ .

١٤ - رسالة الإمام الغزالي إلجام العوام عن علم الكلام من مجموعة رسائل الإمام الغزالي .

١٥ - روح المعاني . للإمام الألوسي في معنى الاستواء على العرش

١٦ - روضة الطالبين وعمدة السالكين . للإمام الغزالي ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ،

ط : ٤ / ٢٠٠٦ – ١٤٢٧ هـ .

١٧ – سنن أبي دواد ، المكتبة العصرية. صيدا .بيروت. بدون تاريخ.

١٨ – سنن الترمذي ، تحقيق أحمد شاكر وآخرون، الناشر شركة ومطبعة عيسى البابي الحلبي . مصر ط(٢) ١٣٩٥هـ–١٩٧٥م .

١٩ – شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل . للإمام الغزالي ، تحقيق د أحمد الكبيسي، مطبعة الإرشاد – بغداد ، ط : ١ / ١٣٩٠هـ – ١٩٧١م .

٢٠ – صحيح الإمام البخاري . دار طوق النجاة .ط (١) ١٤٢٢هـ .

٢١ – عيون المناظرات للإمام اللسكوني تحقيق سعد غراب مع مقدمة وفهارس منشورات الجامعة التونسية ١٩٧٦م

٢٢ – فيصل التفرقة . للإمام الغزالي من مجموعة الرسائل للإمام الغزالي – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، ط: ٤ / ٢٠٠٦م – ١٤٢٧هـ .

٢٣ – قانون التأويل . للإمام الغزالي ضمن مجموعة الرسائل – دار الكتب العلمية – لبنان – بيروت ، ط : ٤ / ٢٠٠٦ – ١٤٢٧ هـ .

٢٤ – القسطاس المستقيم . للإمام الغزالي ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، ط : ١ / ٢٠٠٦م – ١٤٢٧ هـ .

٢٥ – قواعد العقائد في التوحيد. للإمام الغزالي ضمن مجموعة الرسائل – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، ط: ٤ / ٢٠٠٦ – ١٤٢٧ هـ .

٢٦ – كتاب الحكمة في مخلوقات الله ﷻ . للإمام الغزالي – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ٢٠٠٦م – ١٤٢٧هـ .

٢٧ – كتاب فيصل التفرقة . للإمام الغزالي ، وانظر ما قبلها ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، ط : ٤ / ٢٠٠٦ – ١٤٢٧ هـ . ضمن مجموعة الرسائل .

٢٨ – المختار من شرح البيجوري على الجوهرة المسمى تحفة المريد على جوهرة التوحيد . تأليف :

الإمام العالم العلامة شيخ الإسلام إبراهيم البيجوري . الأزهر الشريف – الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩م ، ومقال عن أصول المذهب الأشعري على الشبكة العنكبوتية .

٢٩ – المذهب الأشعري أساسياته ومقاصده . مقال للدكتور : عبد القادر بطار ، مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة **Fmeoa.org** ، تاريخ النشر ١٠/ ٥/ ٢٠١٩، وقد استشهد بكتاب الملل والنحل للشهرستاني .

٣٠ – المستصفى . لأبي حامد الغزالي ، تحقيق محمد عبد السلام عبد الشافي . الناشر دار الكتب العلمية ، ط : ١ / ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م .

٣١ – مسند الإمام أحمد ، قص تخريج المحقق لمجموعة الرسائل – رسالة القول في مذهب التعليم وغائلته .

٣٢ – معراج السالكين . للإمام الغزالي . دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، ط : ٤ / ٢٠٠٦م – ١٤٢٧هـ .

٣٣ – مفاتيح الغيب . للإمام الرازي – دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط : ٣ / ١٤٢٠ هـ .

٣٤ – مقال: عبد القادر بيطار بعنوان الإمام المجدد أبو الحسن الأشعري **WWW.ARRABITA.MA**

٣٥ – الملل والنحل للشهرستاني ط الحلبي.

٣٦ – المنطق والموازين القرآنية قراءة لكتاب القسطاس المستقيم للغزالي، المعهد العالي للفكر الإسلامي (الأبحاث العلمية) ، ط : ١٤١٨هـ .

٣٧ – المنقذ من الضلال . للإمام الغزالي ، تقديم أحمد شمس الدين ، دار الفكر – بيروت – لبنان، ط : ٤ / ٢٠٠٦ – ١٤٢٧م .

٣٨ – منهج الإمام الغزالي في الجمع بين القياسين الأصولي والمنطقي . د عمر مبركي . **www.arrabita.ma.** .

٣٩- والإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به. للباقلاني، تحقيق: زاهد الكوثري مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط:٣/ ١٤١٣ هـ- ١٩٩٣م.